أوربا عصر النهضة
ترقص على أنغام عربية

«تغنم روح الإنسان عدة منافع من الغناء..
منها السكينة التى تهبط عليها فى ساعة
الهموم والآلام»

الحسين بن زيلة المتوفى ١٠٤٨هـ فى كتابه «الكافى فى الموسيقى».

يقال إن الرصانة ليست إلا نقصا فى المزاج غالبا!

وإذا اتخذنا من الشعر الأندلسى، وهو فن وثيقة على حياة أهله، وجدنا الجانب الأكبر وقفا على وصف مغامراتهم العاطفية البهجة، صحبة كأس لا تفرغ، وموسيقا لا تتوقف، ورقص يأخذ بالعقول ويسحر الألباب، وكلها شواهد كافية على ارتشافهم الحياة حتى أخر قطرة!

ولم يكن المسلمون حين هبطوا إسبانيا فاتحين فى مطلع القرن الثامن الميلادى يحملون معهم غير موسيقا بدائية، وغناء لمّا يتطور، وهما متلازمان، فلم تكن الموسيقا، وحتى قرون بعد، قد استقلت

بنفسها أداء وتعبيرا، وكلمة مغن تعنى موسيقيا أيضا، والعكس صحيح، وأحيانا كانت تعرف الموسيقا بأنها الطرب، ويدعى الموسيقى مطربا.

وهذه الموسيقا العربية كانت بدائية، وليدة الحداء، وغناء الركبان، وآهات المكروبين ومن يعانون، ويستخدمها العرافون والسحرة، وفى ممارسة طقوس الحج الجاهلية حين يهلل الحجاج أو يلبون أو يرتلون.. ولكن ذلك كان قليلا ومحدودا، لأن العربى البدوى لم يكن يعنى بغير «الحب والخمر والميسر والصيد.. ولذات الغناء، والمخاطرة، والتعبير الموجز البليغ الملمح عن اللباقة والحكمة، ويستجيد هذه الأمور ولا يرى بعدها غير القبر».

وكانت النساء تشارك فى هذه الموسيقا البدائية فى الأفراح العائلية أو القبلية، فى السلم والحرب، وهى أشياء استمرت حتى عصر النبوة، فقد تضمن الاحتفال بتزويج النبى من خديجة فرحا فيه غناء ورقص وموسيقا، وحين سار المكيون إلى معركة بدر عام ٦٢٤م. أخذوا معهم «جميع آلات اللهو، والقيان يعزفن على الآلات، ويغنين على كل ماء حيث يعرسون».

وعندما سمع المكيون باقتراب الرسول أشاروا على رئيسهم بالانسحاب بدل المخاطرة فأجاب: «والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف عليه القيان».

وكانت هند بنت عتبة ، وزوج أبى سفيان زعيم القرشيين ، على رأس النسوة اللائى صحبن الجيش القرشى فى معركة أحد ، ينشدن الأغانى الحماسية ، ويرثين قتلى بدر ، ويضربن الدفوف ، وعندما حمى وطيس المعركة كن لازلن يغنين ويعزفن .

وكانت المراكز الأسبق تحضرا فى أطراف الجزيرة الشمالية والشرقية تعرف ألوانا أكثر تقدما من الموسيقا ، بتأثيرات فارسية أو بيزنطية ، فكان فى بلاط الغساسنة على أيام جبلة بن الأيهم ، فيما يحكى حسان بن ثابت الصحابى شاعر الرسول ، عشر قيان : «خمس روميات يغنين بالرومية ، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة» وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها .

وكان بين هؤلاء المغنيات الأحرار الهاويات ، والقيان المحترفات ، وهؤلاء كن فى منزل أى عربى ذى قيمة اجتماعية فى مكة ، ويثرب ، والحيرة ، وفارس ، من أصول عربية أو فارسية أو أغريقية ، يغنين بلغتهن أحيانا ، وقصائد عربية أحيانا أخرى ، ومن المحتمل أن التلحين كان أجنبيا .

غير أن من الحق أيضا أن نقرر أن «هذه الموسيقا الجاهلية لم تكن أكثر من ترنّم ساذج ينوّعه المغنى أو المغنية أو يجمّله ، تبعا لذوقه وانفعاله ، أو ما يريده من تأثير .. ويطوّله فى مقطع أو كلمة أو شطر بيت ، بصورة تجعل غناء المقطوعة ذات البيتين أو الثلاثة يمكن أن يستغرق ساعات .. وميزة المغنى فى جمال صوته وخفته وذبذبته ، والشعور الذى يجعل الصوت مستمرا أو متموّجا » .

وكل مغن يغنى فى نغمة واحدة أو مقام، إذ لم يعرفوا تأليف اللحون المتفرقة، أى الهرمونى.. كما نعرفها نحن.. والنوع الوحيد من التأليف المعروف عندهم هو الأنغام التى تبعثها آلات القرع المختلفة من الطبل والدف والقضيب.. وتشكيل اللحن بالزخارف من التموجات والدورات التى سموها الزوائد.

ولكن العرب وهم يجتاحون العالم المتحضر على أيامهم لم يقفوا من الحضارات التى وقعوا عليها موقفا معاديا، وإنما كانوا طلاب علم نهمين، فتمثلوا كل شىء جميل فيها، وطوّعوه لحياتهم، وبدأت الموسيقا العربية الأولى تتلقى إضافات جديدة وعميقة، وفارسية وبيزنطية.. حتى بلغت أوجها رقيا على يد **إسحاق الموصلى**، فى عصر **هارون الرشيد**.

• • •

لم يحمل العرب معهم حين هبطوا إسبانيا فاتحين للمرة الأولى فى مطلع القرن الثامن الميلادى موسيقا متقدمة، ولم يجدوا أيضا عند الإسبان شيئا يمكن أن يضيفوه إلى ما عندهم، فقد كانت الموسيقا الكنسية برتابتها وجمودها هى السائدة، وتمثلت مباهج الطبقة العليا فى الصيد ومشاهد السيرك، وفقد المسرح أهميته، وانفض عنه الناس، ومع ذلك لا يمكن القول عن عامة الناس أنهم كانوا صامتين، يكتفون بسماع موسيقا القداس، إذ من الطبيعى أن يعيش المرء حياته الخاصة، ورغم غيبة الوثائق والنصوص استطعنا أن نعرف شيئا

مما كان يجرى فى المجال الشعبى، ذلك أن المجامع الكنسية المختلفة التى كانت تعقد فى تلك الأيام، أخذت تشدد على منع الغناء والرقص الذى يقوم به العامة داخل الكنائس، وذهبت كل جهود الكنيسة عبثا فى أن تحل الموسيقا الكنسية محل الموسيقا الشعبية.

كانت هناك موسيقا شعبية إسبانية لا نعرف طابعها ولا خصائصها وموسيقا عربية وافدة ليست بأرقى من تلك، ولكن المناخ كان مواتيا للرقى والتقدم، فقد اشتهرت قادس فى جنوب غربى إسبانيا، وهى مدينة أسسها الفينيقيون قديما، وشهرت بأنها قدمت للعالم القديم أجمل الراقصات والمغنيات، وأصبحت لهن شهرة عالمية، وفتن بهن المثقفون والأغنياء والقادة فى روما، وانعكس الإعجاب بهن فى قصائد الشعراء ونثر الكتاب.

ولما كان الأندلس يعيش ثقافيا فى مراحل تكوينه الأولى على ما يبدعه المشرق، ويحتذى أثره ويطلب ملحا كل جديد فيه، فقد أصغى واعيا إلى تطور الحضارة العربية فى العصر العباسى فى مجالاتها المختلفة، وعرف أن الموسيقا ذهبت بالنصيب الأوفى من ذلك التقدم، فازدحم بلاط الخلافة بالموسيقيين المحترفين، ولقوا معاملة حسنة لم يسمع بمثلها من قبل، وسعد هذا العصر بموسيقا عبقرى هو إسحاق الموصلى، فجدد فى الألحان، وأشاع الموسيقا، وأشرف على تدريب المغنيات، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدى مبتدع علم العروض عالما فى الموسيقا، وأبدع فيها نظريا كتابين هما: كتاب النغم وكتاب الإيقاع.. ولكن أيا منهما لم يصلنا.

فى البدء كان الأندلسيون يستقدمون الموسيقيين والمغنيات من المشرق، أو يرسلون بهم ليتدربوا هناك، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يستقدمون كبار الأساتذة، فى مجالات الثقافة المختلفة، لكى يعلموا أبناءهم فى الأندلس نفسه.

وفيما يتصل بالموسيقا واتتهم الفرصة مع **على بن نافع الملقب بزرياب**، وكان موسيقيا عبقريا فذا، ومن أنبه تلاميذ **إسحاق الموصلى**، وحدث بينه وبين أستاذه خلاف لا يعنينا أمره هنا، فارق زرياب بغداد على أثره واتجه غربا، وفى القيروان خاطب **الحكم الأول** أمير الأندلس يعرض فنه فرحب به. وعندما بلغ الجزيرة الخضراء، أول حدود **الأندلس**، علم بوفاة الحكم فأوشك أن يعود من حيث أتى، ولكن الأمير الجديد. **عبد الرحمن الثانى** أكد الدعوة، ولقى زرياب حفاوة بالغة عند وصوله قرطبة، فقد استقبله الأمير بظاهر المدينة، وأنزله قصرا فاخرا، وأجرى عليه راتبا كبيرا.

وكان وصول زرياب خطا فاصلا بين عصرين من الموسيقا.. لقد جاء الأندلس بأحدث ما وصل إليه فن التلحين فى المشرق، وابتدع هو نفسه وترا خامسا أضافه إلى أوتار العود الأربعة، واتخذ المضراب من قوادم النسر، معتاضا به عن مرهف الخشب، وهى فكرة بارعة موفقة، فهى تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر، وعلى كثرة ملازمته إياه، والضرب عليه، وأخذ فى إنشاء المعاهد الموسيقية على امتداد الأندلس، فى مدنه الكبرى: قرطبة، وإشبيلية،

وطليطلة، وسرقسطة، ومالقة وغيرها.. وكان الطلاب يدخلون هذه المعاهد بامتحان خاص، لدينا تفصيلات لا بأس بها عن طريقته.

ولكن الابتداع الأهم، والجوهرى، والذى جعل زرياب أستاذا عظيما، ماهرا ومثقفا، منهجه الممتاز فى تعليم الغناء، فقد كان الأساتذة الفنانون قبله يعلمون تلاميذهم عن طريق التقليد، يغنى الأستاذ ويحاول التلميذ أن يقلده، وبقوة التكرار فحسب يحقق الطلاب النتائج التى يبتغونها.. أما زرياب فقسم العمل إلى ثلاث مراحل: الأولى تعليم الإيقاع.. فيبدأ بالنشيد بأى نقر كان.. والثانية تعليم الإيقاع فى بساطته دون أن يضيف إليه أى طبقة... والثالثة أن يختم «بالمحركات والأهزاج».. ومعها تعود أن يضفى على الغناء تعبيرا وحركة ولطفا، وبها تتضح مهارة الفنان.

واستطاع زرياب بهذا المنهج، وبفرقة تتكون من أجل المغنين صوتا، بين مجموعة كانت تبلغ عشرة آلاف فيما يقال، أن يبلغ شهرة شعبية واسعة، وأرسل إلى زوايا النسيان كل من سبقوه، وأخمل كل أولئك الذين كانوا على أيامه.

ووضع نظاما لارتداء الأزياء المختلفة، وأوقاتا محددة لتغييرها، ولكل فصل زيه المناسب، فيرتدى الناس الملابس البيضاء الخفيفة صيفا، والأزياء الحريرية غير المبطنة، والسترات ذات الألوان الزاهية فى الربيع، ويلبسون فى الخريف والشتاء الفراء والمعاطف ذات الحشو، والبطائن الكثيفة، وينتقلون فيها تدريجا حسب شدة البرد، من الأخف إلى الأقوى.

وكان الناس يلتمسون آراءه ويطبقونها نصا وروحا، وما من تأثير لأناقة الحضارة العباسية ورقيها يمكن أن يكون أشد نفاذا، وأبعد عمقا، عما كان عليه فى قرطبة، ونزولا على رأى **زرياب** الذى لا يناقش، ويقبل على علاته، غيّر أهل البلاط وسكان المدينة أزياءهم، وأثاث بيوتهم، وأساليب طبخهم، وظل اسم زرياب المغنى يتردد بعد ذلك لقرون عديدة، كلما ظهر فى صالونات شبه الجزيرة زى جديد أو مبتكر.

• • •

أصبحت الموسيقا وما تتطلبه من غناء ورقص فى القرن الرابع الهجرى، أى العاشر الميلادى، فى الأندلس.. كما فى بقية العالم الإسلامى. أكثر الملاهى قيمة.. ولم تكن هناك سهرة ولا احتفال ولا مهرجان لا يفسح للموسيقا المقام الأول فيه، وترك لنا المؤرخون أوصافا دقيقة إلى حد ما لبعض الحفلات الليلية التى تقام فى بيوت الخاصة، ونفهم منها أن المدعوين لا يكادون ينتهون من طعامهم وشرابهم حتى تبدأ المشاهد الغنائية الراقصة، تقدمها فرقة موسيقية تتكون من الجنسين.. وربما أكثر هذه الشواهد إثارة وتفصيلا ما رواه لنا مؤرخ مصرى هو **أحمد بن محمد اليمنى**، رواية عن أديب أقام بمدينة مالقة الأندلسية عام ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥م.. وهى شهادة لما يقع عليها أحد من الباحثين قبلا، وجديرة بأن تروى كاملة يقول:

«حكى بعض الأدباء قال : كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف ولزمت المنزل .. وكان يمرضنى حينئذ رفيقان كانا معى ، ويرفقان بى .

«وكنت إذا جن الليل اشتد سهرى .. وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصوات بالغناء .. وكان ذلك شديدا علىّ وزائدا فى قلقى وتألمى وكانت نفسى تعاف تلك الضروب طبعا ، وتكره تلك الأصوات الجميلة جبلة ، وأود أن أجد مسكنا لا أسمع فيه شيئا من ذلك ، ويتعذر علىّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم .

وإنى لساهر ليلة بعد إغفائى فى أول ليلتى ، وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة ، وهدأت تلك الضروب المضطربة ، وإذا ضرب خفى معتدل حسن لا أسمع غيره .. فكأن نفسى أنست به ، وسكنت إليه .. ولم تنفر منه نفارها من غيره .. ولم أسمع معه صوتا ، وجعل الضرب يرتفع شيئا فشيئا ، ونفسى تتبعه ، وسمعى يصغى إليه ، إلى أن بلغ فى الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه .. فارتحت له ، ونسيت الالم ، وتداخلنى سرور وطرب خيل إلى معه أن أرض المنزل ارتفعت بى ، وأن حيطانه تمور حولى ، وأنا فى كل ذلك لا أسمع صوتا ، فقلت فى نفسى .. أما هذا الضرب فلا زيادة عليه ، فليت شعرى كيف صوت الضارب ، وأين يقع من ضربه .

ولم ألبث أن اندفعت جارية تغنى فى هذا الشعر بصوت أندى من النوّارغب القطار، وأحلى من البارد العذب على يد الهائم الصب، فلم أملك نفسى أن قمت، ورفيقاى نائمان ففتحت الباب، وتبعت الصوت، وكان قريبا منى، فأشرفت من وسط منزلى على دار فسيحة، وفى وسط الدار بستان كبير، وفى وسط البستان شِرْبٌ، نحوا من عشرين رجلا قد اصطفوا، وبين أيديهم شراب وفاكهة وجوار قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو ومزامير لا يحركنها، والجارية جالسة ناحية وعودها فى حجرها، وكل يرمقها ببصره، ويوعيها سمعه، وهى تغنى وتضرب، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونى.. وكلما غنت بيتاً حفظته.. إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت.. فعدت إلى موضعى ويشهد الله كأنما أنشطت من عقال، وكأن لم يكن بى ألم..».

ولم تكن الموسيقا وقفا على المحترفين وحدهم..، يحيونها بأجر، ويقدمونها لمن يطلب، ويتكسبون بها فى القصور والبيوت والأسواق والميادين، وإنما كانت تكون جانبا أساسيا من تكوين الشخصية المتحضرة للفتيان والفتيات على السواء... ويحكى لنا ابن حزم، وابن حزم دائما! فى كتابه طوق الحمامة أن ضنى العامرية كريمة المظفر عبد الملك صاحب الأندلس القوى.. وحاكمها الأوحد، طلبت منه أن ينظم لها أبياتا من الشعر تصنع لها لحنا، فاستجاب لما طلبت.. ويثنى ابن حزم على موسيقاها فيقول: ولها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جدا».

وكانت تربية الفتيات بخاصة تتضمن تعليمهن الموسيقا وتدريبهن عمليا على العزف بالعود والرباب والأدوات الموسيقية الأخرى، وعلى ألوان من الرقص الفنى العالى.. وهو تقليد وأصل سيره، ولما يتوقف ونجد أثره واضحا فى الفتيات الإسبانيات حتى يومنا هذا.

وكانت مشاهد الرقص متنوعة، وقدم لنا ابن خلدون صورة لإحدى اللوحات الراقصة، تظهر فيها الفتيات فى شكل غلمان ويعلقن الكرج فى ملابسهن، ويمتطين صهوات أفراس خفيفة من الخشب يمثلن دور الفرسان.. يهاجمن مسرعات، ويقاتلن منسحبات.. ثم يعدن إلى المعركة من جديد.. وكان لباسهن.. فى ضوء أوصاف الشعراء فى شكل عباءة يمكن أن تنفتح من أعلى إلى أسفل، لكى يسمح للراقصة أن تتعرى فجاءة إلا مما هو ضرورى.. وتصبح مثل «زهرة توشك أن تتفتح».

وقد يكون مفيدا أن نشير هنا إلى أن راسمى هذه اللوحات ومنفذيها كانوا مصريين، إذ كان التبادل الفنى بين مصر والغرب الإسلامى قويا ومتواصلا.. وظلت مصر دائما فيما يرون أرض السحر والعجائب والذكاء.. وكان هؤلاء الفنانون المصريون موضع الإعجاب والتقدير فى إشبيلية وقرطبة والمرية وغيرها.

• • •

مع الزمن قويت الصلة بين الأندلس ومصر فيما يتصل بالفنون رقصا وموسيقا وغناء وتمثيلا.. أو كما كان يطلق عليهم القدامى «الخياليون والمشعوذون» ولم يعد للمدينة أو بغداد تأثيرهما القديم.. ومُحى زرياب من الذاكرة موسيقيا، ونقلت مصر إلى الأندلس فن «خيال الظل» وبدأت الموسيقا الأندلسية تسلك طريقا جديدا، ذاتيا وأصيلا، وأفسحت مجالا واسعا للإلهام الشعبى.. وعندما التقط الفنانون التراثيم، والأغانى الشعبية الأندلسية، وليدة الواقع الاجتماعى، كان على الشعراء أن يستجيبوا بدورهم لهذا التطور، فولدت الموشحة، بعد وصول زرياب، وشيوع الموسيقا، والحاجة إلى أشعار جديدة توائم الألحان المتجددة، وقد عجزت القصيدة العربية التقليدية فى شكلها الثابت عن أن تستجيب لمتطلبات أنغامها المتحررة.

وإذا كانت الموشحة التزمت العربية الفصيحة لترضى أذواق الطبقة العليا المثقفة، وإن سهلت ألفاظها وعذبت ورقت، فإن المبدعين بالكلمة لم ينسوا أيضا حاجة «الناس اللى تحت» فألفوا لهم موشحات فى عامية أهل الأندلس، دخلت التاريخ تحت اسم الزجل.. وخلّدها وخلد بها زجال عظيم هو ابن قزمان، ودفع بالشكل وموسيقاه فيما وراء حدود الأندلس على ما سيأتى، فى الشمال عند النصارى، وفى الجنوب عند المغاربة، ولايزال هذا اللون من الغناء والموسيقا سائدا ومزدهرا فى المغرب العربى كله.. ويحمل اسم: الغناء الأندلسى أو كلام غرناطة.

ظلت الموسيقى مع رفيقيها الغناء والرقص مطلوبة ومرغوبة، تبحث عنها الجماهير التى هدتها الحروب، وأرهقتها الضرائب التى تتطلبها آلة الحرب، وفى المشرق والمغرب على السواء، فهى تبحث عن المرح والبهجة تذيب فيها هموما لا قدرة لها على دفعها، وكلما أقبل الناس عليها ارتفع أجر الفنان، ونفقت سوقه، وعظمت مكانته، واشتد الطلب عليه، فحسدته طوائف كثيرة ترى نفسها الأحق والأجدر بهذا التكريم.. وعلى رأسهم الفقهاء.. ويعبر عبد الملك بن حبيب كبير فقهاء الأندلس فى عصر عبد الرحمن الثانى عن هذا الاتجاه خير تعبير، فقد نفس على زرياب أن يعيش فى بحبوحة من العيش، فى أبيات شائعة:

ألف من الحمر وأقلل بها ... لعالم أربى على بغيته
زرياب قد أعطيها جملة ... وحرفتى أشرف من حرفته

ومن جانب آخر، حين رأى الكسالى والقانطون والجهلة تردى العالم الاسلامى، وتراجعه أمام أعدائه، شرقا وغربا، ألقوا بالتبعة على الموسيقا، وحمّلوها وزر كل النكبات السياسية والحربية، وجعلوا الهزيمة عقاب الإقبال عليها، بدل أن يبحثوا عن الأسباب الموضوعية.. ومع التشاؤم من الغد، والعجز عن تدبير الحل، والبحث عن تبرير لما وقع.. ارتد المتزمتون إلى الهمسات التى نسيها الناس فى لحظات الانتصارات، ورفعوا راية «الموسيقا رجس من عمل الشيطان» وغذّى الفساد السياسى والادارى الذى كانت تتخبط فيه

الدولة هذا الاتجاه عندهم.. وأفسح له فى أذهان العامة مكاناً، بأكثر مما غذته النصوص الدينية الصحيحة، أو الاقتناع المطمئن بها.

كان الناس ضائقين بالدولة، عاجزين عن تغيير الواقع، يرون المظالم ولا يملكون لها دفعا.. ويلمسون الفساد ولا يستطيعون له اجتثاثا، فما عليهم إذن.. أن هرولوا وراء مخبول، وماذا يخسرون إذا استجابوا لمشعوذ .. وهكذا راجت فى فترة التخلف والفساد، أفكار تحرم الفن، وتجرم الحياة.

• • •

حين يسمع المرء الموسيقا الإسبانية الأصيلة، وغناء الأندلسيين اليوم فى جنوب أسبانيا، ويعرف باسم الفلامنكو، FLAMENCO فإنه يشعر فى الحال بأن هناك علاقة وثيقة جدا بينه وبين الموسيقا والغناء العربيين، ويرد على خاطره فى الحال فكرة تأثير الموسيقا العربية فى الموسيقا الإسبانية هذه، وأن هذه العلاقة من بقايا هذا التأثير.

ومن الثابت تاريخيا أن الجانب الإسلامى فى الأندلس، وهو الأقوى والأكثر تقدما، كان مهوى أفئدة الطبقة العليا فى الجانب المسيحى، يهبطون إليه طلبا للعلاج.. أو لشراء الملابس الفاخرة.. ويجلبون منه الفنانين لحفلاتهم.. ولعب التهادى بالقيان بين ملوك الجانبين دورا بالغ الأهمية إلى جانب قنوات أخرى أسهمت فى نقل الحضارة الاسلامية إلى بلاط الملوك المسيحيين فى الشمال.

وقد شكا مجمع القساوسة الذى انعقد فى بلد الوليد عام ١٣٢٢م من أن المسيحيين يدخلون المسلمين واليهود فى الكنائس، وهم يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية، وفى بلاط شانجه الرابع ملك قشتالة كان عدد الموسيقيين عام ١٢٩٣ الذين يتقاضون مرتبا من القصر سبعة وعشرين: ثلاثة عشر مسلما.. منهم امرأتان، ويهوديا، واثنى عشر مسيحيا.. وفى القرن الخامس عشر وجد فى تقارير بلدية ترويل بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٤٤٣ طلب من الأعضاء بدفع عشر قطع نقدية لمن يسمى محمد شاشو من أهل الفونت «لأنه قام بالعزف على آلته الموسيقية فى الاحتفالات الماضية».

وقد أثرت الموسيقا الأندلسية بدورها على امتداد القرن الثالث والرابع والخامس عشر فى الموسيقا الأوربية، مباشرة أو عن طريق الموسيقا الإسبانية، وبواسطة التجار والرحلات والحج المسيحى إلى شنت ياقب، وقبل ذلك كله عن طريق الأسيرات، وهن عادة من بنات الطبقة الراقية.. وكانت موقعة بربشتر، وحدثت عام ١٠٦٤ مثلا حيا لهذا التأثير الإيجابى.

ففى أغسطس من ذلك العام قامت القوات المسيحية الأوربية، بدعم من البابا بمحاصرة المدينة، وهى فى الشمال الشرقى من الأندلس لمدة أربعين يوما، استسلمت المدينة بعدها، وغنم المنتصرون كل شىء فيها، البيوت والقصور والنساء، ووقع هؤلاء فى أسر الحياة العربية فاحتذوها، فارتدوا الملابس العربية، وسحرتهم الموسيقا الأندلسية، وحين قفل ملك الروم (النورمان) عائدا إلى بلده «تخير

من بنات المسلمين الجوارى الأبكار، والثيبات ذوات الجمال، وحملهن معه، ليهديهن إلى من فوقه».

ويقدم لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير صورة لواقع إحدى الأسيرات الثقافى، وكلهن فى مستواها يقول: إن والد إحداهن وسّط تاجرا يهوديا أن يأتى المدينة.. وهى فى يد الأعداء وأن يتجسس خبر ابنته وأن يفتديها بكل ما يريدون من مال..

جاء اليهودى إلى بربشتر، وعرف أنها من نصيب قومس (كونت) فذهب إليه، ووجده يسكن بيت ذلك الثرى العربى، لم يغير منه شيئا، وعلى رأسه وصائف قائمات يسارعن إلى خدمته، فرحب باليهودى، وسأله عن قصده، فعرفه اليهودى بغايته، وأنه يدفع له ما يريد فداء احدى الفتيات القائمات على رأسه، فرفض رفضا قاطعا، ولو دفع له فيها خير ما فى الدنيا.

ثم نادى فتاة أخرى قائمة على رأسه، وكانت تأسره بثقافتها، والموسيقية من بينها بخاصة، وطلب إليها أن تغنى فأخذت العود، وقعدت تسويه واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج، ولكن الموسيقا أطربته أيما طرب.. فحث شربه، واستزادها إعجابا، ولما يئست منه، تركته ومضيت لحالى..

ويروى ابن بسّام، عن ابن حزم بخطه، عن ابن الكتّانى الطبيب، محمد بن الحسن المذحجى، قال: شهدت يوما مجلس العلجة (أى النصرانية الإسبانية) بنت شانجه ملك البشكنس، زوج الطاغية

شانجه بن غرسية بن فرذلند، بدد الله شيعتهم!ــ لبعض تردّدنا عن ثغرنا إليه فى الفتنة، وفى المجلس عدةُ قينات مسلمات من اللواتى وهبهنّ له سليمان بن الحكم، أيام إمارته بقرطبة، فأومأت العلجة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنّت بهذه الأبيات:

خليلىّ ما للريح تأتى كأنّما ... يخالطها عند الهبوب خَلوقُ
أم الريحُ جاءتْ من بلاد أحبّتى ... فأحسبها ريحَ الحبيب تسوق
سقى اللهُ أرضاً حلّها الأغيدُ الذى ... لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فرقتين فعنده ... فريقُ وعندى للسياق فريق

فأحسنت وجوّدت، وعلى رأس العلجة جاريات من القوّامات أسيرات كأنهن فلقات قمر، فما هو إلاّ أن سمعت إحداهن الشعر فأرسلت عينيها كأنهما مزادتان، فرققت لها وقلت: ما أبكاك؟ قالت: هذا الشعر لأبى، وسمعته فهيّج شجوى، فقلت لها: يا أمة الله، ومن أبوك؟ قالت: سليمان بن مهران السرقسطى، ولى فى هذه الإساره مدة، ولم أسمع لأهلى بعد خبرا».

قال ابن الكتانى: فما جزعت على شىء جزعى عليها يومئذ.

فالمرأة أسيرة فى البدء، ثم زوجة أو وصيفة أو عشيقة فى النهاية، تلعب دورا قوى التأثير على الرجل الذى اصطفاها، ولما كانت المرأة الأندلسية المسلمة عادة أرقى من الرجل المسيحى الذى آل إليه أمرها، فهى تطبعه بطابعها، يحب ما تحب، ويكره ما تكره، وأخيرا يتعلم منها

لغتها العربية، فصيحة أو عامية، وما يتصل منها بالجانب العاطفى والعائلى على نحو أخص، وتأخذ بشىء من تقاليد مجتمعها وبيئتها، والغناء والموسيقا فى مقدمة ما تأخذه به.

وقبل هذا كانت هناك بعثات عديدة تأتى إلى قرطبة للدراسة، ومن بينهم من يدرسون الموسيقا على التأكيد، وبلغ عددهم عام ٢١٣هـ ٨٢٨م سبع مائة طالب وطالبة من مختلف مقاطعات إسبانيا وألمانيا وفرنسا.. جاءت بهم شهرة زرياب فيما يبدو.. فقد وصلوا بعد سبعة أعوام من مجيئه إلى قرطبة.. والتحقوا بالمعاهد التى أنشأها يدرسون أصول الموسيقا ويتدربون على العزف بمختلف الآلات، وعلى فنون الشعر والرقص والغناء.

وكان الشعراء الجوالون، أو المداحون كما ندعوهم فى الصعيد، أو القوالون كما يطلق عليهم فى المغرب الكبير، يذهبون ويجيئون، ويذرعون الأندلس، وشمال إسبانيا وجنوب فرنسا، يتغنون بالقصائد الغرامية أو الملاحم الأسطورية ولا يعترفون بالحدود السياسية أو الدينية أو اللغوية.. ويمثل الأولون ابن قزمان.. ووصلنا ديوان أزجاله كاملا، ويحتل اليوم مكانة ممتازة بين من يدرسون الموسيقا والرومانيات من المستشرقين.

• • •

وتذكر الباحثة الألمانية سيجريد هونكه فى كتابها «شمس الله تشرق على الغرب» أن جورج الثانى ملك الإنجليز أرسل ابنة أخيه

الأميرة **دوبانت** على رأس بعثة من بنات الأشراف يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى، ويحمل كتابا من الملك إلى الخليفة **هشام الثالث** (١٠٢٧ ــ ١٠٣١) وهو أخر خلفاء بنى أمية يلتمس منه أن تكون مع زميلاتها موضع عناية الخليفة وحماية حاشيته، وحدب اللائى سوف يتوفرن على تعليمهن، وحملت الأميرة معها هدية إلى الخليفة، تتكون من شمعدانين من الذهب الخالص، طول الواحد ثلاثة أذرع مع أوان ذهبية أخرى، عددها اثنتان وعشرون قطعة، مرصعة بأبدع النقوش.

وقد وافق الخليفة هشام الثالث على قبول البعثة، وأمر بعد استشارة من يعنيهم الأمر أن ينفق عليها من بيت مال المسلمين، ورد على الهدية بأخرى من الطنافس الأندلسية.

مع القرن الحادى عشر بدأت جماعات التروبادور تظهر فى جنوب فرنسا.. ثم فى ألمانيا وبعدها جماعات المينيسجر، تتغنى بأشعار جديدة، جاءت فى شكل الموشحات الأندلسية، وعلى ألحان هى صدى مادرسه مبعوثوهم من موسيقا فى المعاهد الأندلسية، أو سمعوه من الفنانين الأندلسيين، محترفين وهواة؛ وكان محتوى هذه الأغانى هو نفس محتوى الموشحات من غزل عف أحيانا، وغير محتشم أحيانا أخرى، ولكنه يوقر المرأة فى كل الحالات، ويذوب أمامها خضوعا وامتثالا، ويتغنى بجمال الطبيعة، ويعبر قبل كل شىء عن هموم المرء إنسانا، له طموحاته وأشواقه وإحباطاته أيضاً.

اتفق مؤرخو الموسيقا على أن الموسيقا الأوربية الحديثة لا تدين بشيء للموسيقا الإغريقية، فثمة فجوة واسعة تفصل بين المرحلتين، وبخاصة أن الألحان الإغريقية لم تدون، وأتى الزمن تماما على صدى أنغامها، ثم اختلفوا بعد ذلك..

رأى فريق منهم أن الموسيقا الحديثة وليدة التأثير السلتي، والسلت قوم ينتمون إلى العنصر الهندى الآرى، ويعودون إلى عصر ما قبل التاريخ، تجمعوا أولا فى أوربا الوسطى، ثم زحفوا على بلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا وإنجلترا.. ثم ذابوا فيما بعد فى الرومان، وهى نظرية لم تجد من الأدلة ما يدعمها علميا.

وألقى آخرون بفرض غير علمى، وهو أن الموسيقا الأوربية الحديثة تفجرت عفويا على غير مثال سابق.

ولكن المستشرق الإسبانى العظيم **خوليان ريبيرا** عكف خلال اثنى عشر عاما، من ١٩١٢ إلى ١٩٢٤ على دراسة الموسيقا الأوربية الوسيطة، كنسية وشعبية، والموسيقا الأوربية الحديثة، والشائعة على أيامه فى المقاطعات الإسبانية، وعند عدد كبير من بقية الشعوب الأوربية، فى دقة فنية متناهية، درس الإيقاع والتناسق والتغيير، وانتهى بعد أن استعرض جوانب القضية، ولاحقها فرضا بعد فرض، وتمعن موادها وثيقة بعد وثيقة، إلى حل أسرار هذا اللغز، وكان غامضا على جمهرة الباحثين، وبعيدا عن تناولهم، وأكد فى بحثه على

أهمية الاستمرار التاريخى فى هذا الجانب الثقافى، وانتهى إلى أن الموسيقا الأوربية الحديثة ليست إلاّ تطورا وصدى للموسيقا الأندلسية.

فقد كان العرب، فيما يرى.. فى الموسيقا.. كما فى بقية العلوم والفنون الأخرى والفلسفة، وبخاصة الأندلسيون منهم، ورثوا الثقافة الكلاسية ونقلوها إلى أوربا، ودورة الحياة لا تتوقف، فقد ورثت بيزنطة وفارس حضارة اليونان.. والتقط الإسلام حضارة الاثنين ومزج بينهما وبين حضارة ثالثة قادمة من أقصى المشرق، وهى الحضارة الهندية، وكلها انتقلت إلى أسبانيا الإسلامية، فأثرت واغتنت بعناصر أخرى أخصبتها فى الأرض الجديدة، وقدمتها إلى أوربا.

ذلك أن الموسيقا الأندلسية ليست مجرد صدى للموسيقا العربية المشرقية، وإن حافظت على خصائصها الجوهرية، فقد أضفى عليها الأندلسيون طابعا شعبيا، ونقلوها من الغناء الفردى إلى الغناء الجماعى، وابتدعوا أوزان الموشحات، والأزجال لتوائم صدى الألحان الجديدة وتتفق مع إيقاعها.. وتسرب هذا الطابع الأندلسى عن طريق التعليم أو التقليد إلى إسبانيا المسيحية، الملوك والشعوب على السواء، فى حفلات القصور، ومهرجانات الميادين، فى سمر الطبقة العليا وفى تجمعات العامة، وحتى فى الحفلات الدينية كان يستخدمون فنانين مسلمين، وبدأ الشعراء المسيحيون يكتبون قصائدهم فى شكل موشحة لتغنى أو أن شئت لتوائم الإيقاع الموسيقى العربى، وأصبح شكل الموشحة أو الزجل شعبيا وشائعا فى كل الأندلس بجانبيه الإسلامى

والمسيحى، وظل كذلك حتى منتصف القرن السابع عشر، أى بعد قرن ونصف من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس.

وقد استخدم الأوربيون آلات الموسيقا العربية فى النفخ أو النقر.. وأخذوها بأسمائها العربية، وألحانها المتصلة بها، فقد استخدموا: العود، والرباب، والقيثارة، والناى، والنفير، والبوق، والدف وغيرها [١].

وقد عرفت أوربا لأول مرة فى القرن الثالث عشر مذهبا جديدا فى الموسيقا اسمه «فن الميزان»، والكتب التى وضعها المؤلفون الأوربيون عنه فى ذلك القرن، تشبه فى معالجتها لأنواع الأنغام ماكتبه العرب، والأغانى الشعبية من الموسيقا الغربية التى ألفت وفقا لفن الميزان مثل «الروندو» Rondo وبلاداس Baladas لها صور ثابتة، وتركيبها الفنى هو بعينه تركيب الأغانى الأندلسية التى كانت سائدة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وشاعت فى فرنسا، ونجدها فى انجلترا أيضاً فى الأناشيد الدينية القديمة التى تمجد العذراء، وبمناسبة أعياد الميلاد، وذهبت هذه فى تقليد الموشحة أبعد من غيرها، فإذا كانت الخرجة فى الموشحة تجىء فى اللغة الرومانثية، أو فى عامية أهل الأندلس، فكذلك القصيدة الانجليزية تجىء فيها الأغصان باللغة الانجليزية الشعبية على حين يجىء القفل أو البيت الرابع أن شئت، فى اللغة اللاتينية.

---

(١) Leud, rebel, gait, du Izaine, anafil alboue, adufe.

• • •

فى البدء واجهت نظرية ريبيرا رفضا شديدا، مصدره عنصرية تتعالى على كل ما هو عربى، أو تعصبا دينيا يرفض كل ما هو إسلامى، أو تعاليا قوميا يدير ظهره لكل تأثير أجنبى، أو جهلا باللغة الإسبانية وفيها كتب البحث بدءا، ولكن ما إن أخذ البحث طريقه إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية مترجما، حتى تلاشت الصعوبات وتآلف التقنيون الموسيقيون مع النظرية الجديدة، وأصبحت مقبولة عند قطاع عريض من المؤرخين والدارسين.

بقى أن أشير إلى أن البحث لما يترجم إلى العربية حتى الآن، رغم كثرة أقسام اللغة الإسبانية فى جامعات القاهرة، وعين شمس، والإسكندرية والأزهر.

حاجة تكسف!!

العالم العربى فى مطلع القرن التاسع عشر كما رآه رحّاله إسبانى

كانت رحلة عجيبة، وكان رحّالة أعجب!...

أمّا الرحلة فإلى العالم العربى فى مطلع القرن التاسع عشر، أو على التحديد بين عامى ١٨٠٣ و١٨٠٧، وأمّا الرحّالة فإسبانى تقمص شخصية عربية، وارتدى زيا شرقيا، واصطنع لنفسه نسبا عباسيا، ومضى يطوف العالم العربى تحت هذا الستار.

تلك هى رحلة «الأمير على بك العباسى»، ولم يكن على بك هذا غير دومنجو باديا Domingo Badia، أحد الإسبان القلائل الذين ولوا وجوههم شطر الشرق ليروا ما هنالك، وأولهم، وإن لم يكن على التأكيد الأوربى الوحيد، فقد عرفت بلادنا رحالة كثيرين، جاءوا اليها من كل أقطار أوربا، للتبشير أو التدمير، وللتجسس أو التلصص، وفى القليل النادر لمعرفة كنه شعب ظل طوال العصور الوسطى المنارة الهادية، والشعلة المضيئة، والقوة المؤثرة، والجامعة التى يتجه إليها كل راغب فى المعرفة، طموح إلى الحكمة.

وربما تكون رحلة باديا هذه من أهم الرحلات الأوربية، لأنها

تكشف فى وضوح ، من خلال نص الرحلة وما أحاط بها من تدبير وملابسات ، ما كانت تخبىء أوربا لعالمنا العربى ، وماسوف يتحقق بعد ذلك تدريجا ، ذلك أن إسبانيا كانت تقف على هامش اللعبة ، تتمنى أن يكون لها دور ، وأن تأخذ بنصيبها من الغنائم ، ولكن الأوربيين الآخرين لا يودون لها أن تخرج من واقعها الفقير الضعيف المتخلف ، ولم تكن تملك الإمكانات المادية والعلمية التى تتيح لها أن تلعب هذا الدور وحدها .

ومن جانب آخر فإن الاهتمام بأمريكا الجنوبية وأهلها واكتشاف مجاهلها قد شغلها ردحا من الزمن ، واستنفد كل قواها ، فلما بلغت القرن التاسع عشر كان كل شىء فيها قد ترهل : الدولة ، والإرادة ، والاقتصاد ، والرغبة فى اقتحام المجهول . ومن هنا تكتسى رحلة دومنجو باديا أهمية بالغة ، وبالنسبة لنا فإن الرجل يقدم شهادة تتسم بالموضوعية عما رأى فى بلادنا ، فى فترة تقل فيها المصادر العربية ، على حين أن شواهد الرحالة الآخرين تنضح كذبا ومبالغات ، وخيالات وأوهاماً ، وهى إلى الأدب المبدع أقرب منها إلى الواقع والتاريخ .

الأخبار المتصلة بحياة باديا فى طفولته وصباه قليلة جدا ، وكل ما نعرفه عنه أنه ولد فى برشلونة فى أول أبريل عام ١٧٦٧ لأب يعمل أمينا لحاكم هذه المدينة ولأم ذات أصل بلچيكى ، واستقر أهلها فى برشلونة منذ القرن السابع عشر ، وليس هناك ما يشى أنه تلقى أية

دراسة عالية، أو التحق بأية جامعة، ولم يكن ذلك ضروريا فى تلك الأيام لكى يتولى المرء وظيفة إدارية. غير أن أحدا لا ينكر عليه أنه تميز بالذكاء وحب المعرفة، والولع بالقراءة، والميل إلى دراسة الرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وحصل منها قدرا طيبا أهله وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن يعين موظفا بالإدارة المالية فى غرناطة، وفى التاسعة عشرة خلف والده فى وظيفته التى كان يشغلها فى بيرة فى مقاطعة المرية، عند ما نقل منها إلى مدريد.

وبعد إقامته فى بيرة خمس سنوات تزوج فتاة منها، ولدت له بنتا بعد ثلاث سنوات من الزواج، وفى العام نفسه نقل مديرا لمصنع الطباق الملكى فى قرطبة، وفيها أمضى أربع سنوات يدرس ويتأمل، وغيرت مجرى حياته، إذ فتحت أمام ناظرية ألوانا من التأمل، وأثارت فى حنايا عقله جديدا من الأمل والتفكير.

رأى فى قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية أطياف المجد الغابر، وطابع الحضارة الباقية عبر الزمن، ورأى فى أهلها شموخ العزيز، وأنفه الأصيل، وحسرة الكليم، ورأى خمسة قرون لم تغير من الناس كثيرا، ذهبت دولة وجاءت أخرى، اختفى الإسلام وسادت المسيحية، ولكن قرطبة لم تنس ماضيها لحظة، حتى بعد أن احتلت أجراس الكنيسة العظمى مآذن المسجد الجامع، ورغم أن أهلها لم يعودوا عربا ولا مسلمين.

وربما إلى هذه الأعوام يعود بحثه الأول عن «النفط والآلة والمناطيد الهوائية»، وأهداه إلى جودوى Godoy رئيس الوزراء الإسبانى، ومع أن الحكومة الإسبانية يسرت له الوسائل بعد إلحاح منه، إلا أن التنفيذ تحول إلى سلسلة من الصعوبات والعوائق، وفشلت محاولاته، وبعدها ترك قرطبة إلى ثغر قادس، ويبدو أنه لم يتسلم عمله هناك لأنه لا يظهر فى قائمة الوظائف التى تولاها، وحرّرها بيده بعد إنتهاء رحلته. وقد ذهب إلى مدريد للدراسة فيما يقول، ولأنه يود أن يعرض خططه على الإدارة فى انتظار موافقتها.

وفى ٨ من أبريل ١٨٠١ قدم إلى جودوى مذكرة، دون وسيط ولا توصية ــ فيما يقول ــ تتضمن خطة رحلة إلى إفريقيا، لغايات سياسية وعلمية، وأرفقها بخريطة جغرافية، وأشار فيها إلى أن العقبة الرئيسية أمامه، وأمام أية رحالة أجنبى، هى تعصب الشعوب الإسلامية، فهم ينظرون إلى أصحاب العقائد الأخرى على أنهم أعداء ألداء، ومن يمت فى قتالهم فهو شهيد. وأما الأوربى الذى يخفى دينه ووطنه، ويتقدم إليهم فى صورة مسلم فسوف يستطيع زيارة بلادهم كلها، ولا يكلفه هذا إلا شيئا من اللغة العربية، وأن يحفظ قدرا هيّنا من القرآن الكريم، وأن يرتدى ملابس شرقية، ويحافظ على المظاهر والتقاليد الإسلامية، وأن يأخذ اسما إسلامياً.

ولم يكن غافلا عن التعصب الكاثوليكى القاتم الذي يمسك بمصائر الأمور فى إسبانيا، فلا يرتضى له أن يتظاهر بالإسلام مؤقتا حتى

لغايات سياسية ، مما يؤدى إلى توقف الحكومة فلا توافق على خطته ، ولهذا أسرف فى الحديث عن نبل مشروعه وغاياته ، والفوائد العظيمة التى تجنيها المسيحية من وراء اكتشافاته .

وكان تنفيذ الخطة يقتضى أن يقيم فى مدينة فاس شهرا أو شهرين ، يتعلم خلالها لغة المادينج التى يتكلمها سكان إفريقيا السوداء فى أعلى السينغال والنيجر ، فقد تصور أن بعض التجار فى فاس ممن يتاجرون مع داخل أفريقيا يتكلمونها ، واعتقد أن هذه اللغة مفتاح التفاهم مع سكان أفريقيا السوداء ، فإذا أكمل هذه المهمة بدأ رحلته على ثلاث مراحل كبرى :

المرحلة الأولى تبدأ من مدينة مراكش إلى أغادير فى جنوب غربى المغرب على ساحل الاطلنطى ، وتطلق المصورات الجغرافية الأوربية على هذه المدينة الأخيرة اسم سانتا كروث ، ثم يدخل الصحراء من وادى درعة على حدود المغرب الجنوبية ، عبر الطريق التى رسمها سيدى محمد موسى عبد الله ، وهو تاجر من جبل طارق ، للرحالة الإنجليزى مونج بارك ، ويصل إلى بنون فى شهرين ، وهو مكان عبثا نفتش عنه فى الخرائط القديمة أو الحديثة ، ويبدو أنه مجرد محط للقوافل ، ومن هذه إلى مدينة ولاتة ، وهى اليوم فى موريتانيا ، ويذكر ابن بطوطة أنها على مسيرة شهرين من سجلماسة فى الجزائر ، ثم تنبوكتو فى مالى والهوسة ، وبعدها إلى سان جورج فى ساحل الذهب ، وهى المينا فى غانا الحالية .

وبعد أن يستريح قليلا فى هذا المكان الأخير تبدأ المرحلة الثانية، وفيها يعبر إفريقيا الاستوائية من الغرب إلى الشرق، إلى أن يصل إلى بيافرا، ثم إلى مدينة ملينده فى زنجبار على ساحل المحيط الهندى، وهى مدينة على بعد خمسين ومئة كيلو مترا إلى الشمال من ممباسا، على شاطىء كينيا، وكانت فى تلك الأيام مركزا تجاريا هاما، ترده البواخر العربية بكثرة، وفيها التقى المستكشف البرتغالى **فاسكو دى جاما** بالملاح العربى **أحمد بن ماجد**، والذى قاده عبر المحيط فى رحلته إلى الهند.

وكانت المرحلة الثالثة أن يبدأ من الحبشة إلى دارفور وكردفان والنوبة وكانيم وطرابلس، وكانت كانيم مملكة مستقلة ظلت حتى عام ١٨٤٦ على ضفاف بحيرة تشاد، ويلاحظ على خطة باديا هنا الاضطراب، لأن النوبة شمال شرق دارفور وكردفان على حين أن كانيم أقصى جنوب الطرق الرئيسية التى تخترق الصحراء وتنتهى فى طرابلس الغرب.

وقد قدر باديا أنه سوف يقطع قرابة عشرة آلاف كيلو مترا، تحتاج إلى ثلاثة أعوام، وهو ما يسمح له أن يعد تقريرا مفصلا عن السياسة والاقتصاد والعادات والمنتجات، ومواد الترف الأكثر طلبا وإقبالا عليها، فى المناطق التى سوف يزورها. وأن يرسم لها خرائط، وأن يجمع منها نباتات وأحجارا، وأن يعثر على منابع النيل، وعبثا كان يبحث عنها قبله الإنجليزيان **برون** و**جيمس بروس**، ووصلا قبله

بأعوام، ولابد أنه اطلع على رحلة هذا الأخير إلى منابع النيل، لأنها تُرجمت الفرنسية، وصدرت فى باريس. وكان بطمح فى الحصول على معلومات وافية عن تنبوكتو عاصمة الصحراء، وكان يُظن يومها أنها غارقة فى الثراء.

وتظهر الخطة ثقة باديا فى نفسه، وثقافته وقوة تحمله، وصلابة جسمه، ولم يكن لها ما يبررها أو يبرهن عليها.

مثلا، كان يعتقد أنه قادر على تعلم اللغة العربية فى زمن بسيط، وأن يتعلم لغة المندينج فى شهرين يقضيهما فى مدينة فاس، ولكنه لم يجد فيها تاجرا واحدا يعرف شيئا عن هذه اللغة، لأن الذين يتحدثونها يقيمون بعيدا عن محيطهم التجارى، والتجار الأفارقة الذين يتعاملون معهم، يعرفون العربية غالبا، أو يعرفون منها على الأقل ما يحتاجون إليه فى حوارهم التجارى.

يبدو أن باديا اعتمد كثيرا على رحلة مونج بارك وتعليقات الميجور رنيل عليها، وصدرت طبعتها الثانية فى لندن عام ١٧٩٩، وأنه قرأها بعناية، وأنّ تظاهره بالإسلام، واختياره الزى الشرقى جاء نتيجة مباشرة لها، لأن مونج وقع أسيرا، وفيما بعد، عندما أطلق سراحه أكد على أنه كان يمكن أن يفلت من الأسر، وأن يتجنبه، لو أنه كان مسلما، وكان سيدى محمد موسى قد حذره من زيارة تنبوكتو، لأنهم هناك يعتبرون غير المسلمين أبناء الشياطين، وأعداء الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكن من الحق أيضا أن معلومات باديا كانت قاصرة، لأن مثل هذا الزىّ لا يخدمه فى شىء فى المناطق التى تقع جنوب تنبوكتو، والتى كان يتهيأ لاختراقها، لأن المسلمين كانوا فى هذه المناطق قلة، أو لا يكاد يوجد فيها مسلمون.

على أية حال أصبح مثل هذا التخفى شيئا شائعا بين كبار رحّالة القرن التاسع عشر، فالسير ريتشارد بورتو حج إلى مكة فى ثياب درويش فارسى، والإسبانى جفيرا جال المغرب كله مسلما ارتد عن المسيحية، واتخذ اسم القائد إسماعيل، والفرنسى رينيه كيليه رحل إلى تنبوكتو فى صورة مسلم شرقى انفصل عن والديه منذ الطفولة، والدكتور ليتز أشقر الشعر، ويجهل العربية تماما، ذهب من طنجة إلى تنبوكتو متخفيا وراء مظهر طبيب عثمانى، على حين أن فوكول تعمق فى جبال الأطلس فى ثياب يهودى، وكل هؤلاء الرحالة، طبقا لرواياتهم فى رحلاتهم، سعدوا بالزى الشرقى الذى اختاروه، وعلى حين لقى كيليه حفاوة بالغة من المغاربة، وصدقوه فيما قال، كما صنعوا مع باديا من بعد، لم يستطع أن يتغلب على شكوك السود فيه.

• • •

تلقت الدوائر الحاكمة فى إسبانيا مخطط باديا بحماسة بالغة، وبخاصة الملك وجودوى رئيس الوزراء، وأحيل التقرير إلى مجمع التاريخ الملكى، فألف لجنة ثلاثية لدراسته، وكان ردها: إن باديا مجرد هاو، ومعلوماته ليست عميقة، ولا واسعة بالقدر الذى تتطلبه

رحلة كهذه، وشكت فى نجاح المخاطرة، وأشارت إلى أنه يجهل العربية، ولم يختر رفيقا يصحبه، يؤكد المعلومات التى سوف يضمنها تقريره، ويحافظ على الملاحظات والأوراق إذا حدثت لباديا مصيبة، ولكنها أمام روح المغامرة والحماسة اللتين أبداهما توصى بتوجيه ذلك إلى أمريكا الجنوبية، فى نطاق أملاك ملك إسبانيا.

ولم ييأس باديا، وعاد إلى جودوى من جديد، وليفتح شهيته أخذ يعدد ما سوف تجنيه إسبانيا من الرحلة، ومن إمكانية ضم أراضى جديدة إلى أملاكها، وترك لنا جودوى نفسه، فى مذكراته، انطباعاته عن هذا العرض، يقول:

«إن رحلة إلى الخارج، إلى إفريقيا وآسيا لابد أن تكون علمية فحسب، وغايتها الأساسية تنحصر فى معرفة الوسائل التى تمكننا من مد تجارتنا من المغرب إلى مصر، ورسم الخطط كى تبلغ مناطق آسيا مع استقلال كامل عن القوى الأوربية... وثمة فكرة استقرت فى خاطرى، وتعيش دائما فى فكرى، وبت أحلم بها، وهى البحث عن طريقة نصل بها إلى تجارة أفريقيا الداخلية عن طريق المغرب، فهناك مواد تجارية كثيرة، ليست بذات أهمية، أو حتى لا تساوى شيئا فى أمريكا، وقليلة القيمة، وليست لها أسواق مضمونة فى أوربا، يمكن أن نجد لها مخرجا فى البلاد الأفريقية، وبأثمان غالية... إن إسبانيا فقط يمكنها، لموقعها الجغرافى، أن تستفيد بالمتاجرة مع أفريقيا دون أن تخشى منافسة».

واقترح باديا أن يصحبه فى رحلته هذه رجل آخر وجده فى معهد سان إيسيدورو الملكى، يدعى **سيمون دى روخاس**، من قرية تطواس فى مقاطعة بلنسية، حصل على الدكتوراه فى اللاهوت من جامعتها، ويعرف اللغة العربية، وترك رسالة صغيرة طبعت فى مدريد عام ١٨٠١ بعنوان: «عرض موجز للنحو والشعر العربى»، تحمل بعضا من الأفكار الموجزة عن هذين الموضوعين، وعلى الرغم من قلة أهميتها علميا تعكس الحالة التى كانت عليها دراسة اللغة العربية فى إسبانيا فى تلك الأيام، والوجهة التى كانوا يفكرون فى أن تكون عليها. وكان **روخاس** يشارك باديا فى معرفته بالعلوم الطبيعية، لأنه أمضى أيامه يعمل فى الحديقة النباتية فى مدريد، ثم اختير نائبا فى البرلمان الإسبانى.

ووافقت الحكومة الإسبانية على الخطة وتمويلها، ولم يكن باديا سعيدا بها، لأن المبلغ الذى قُدِّر له مجرد مساعدة على الدراسة لا يزيد عن ثلاثة آلاف ريال، تضاف إلى مرتبه، ونصف المبلغ يدفع لروخاس بوصفه مرافقا، كما خصص مبلغ آخر لشراء الآلات العلمية، ويجب أن تدفع فى إنجلترا بحضور باديا نفسه، وقد تأخرت الرحلة بضعة شهور، وفيها ودّع الملك والملكة، وتمنيا له التوفيق.

وعندما عاد إلى مدريد، وذهب إلى وزارة المالية، عرف أنه لا توجد أموال لكى يدفعوا له المبالغ المقررة بأمر ملكى، ومع ذلك ففى ٧ مايو ١٨٠٢ ودّعا **جودوى** وخرجا إلى باريس، وفيها اتصل

بالهيئات العلمية المختلفة، وحصل على بعض المعلومات الجغرافية والبحرية، وتحدث عنها لمن التقى بهم من الفرنسيين، وصنع الشيء نفسه فى لندن، وشرح لهم الغاية من رحلته إلى المغرب متخفيا فى زى مسلم، ولم يكن هذا سرا وطنيا ولا حكوميا، لأن جريدة مدريد أعلنت عن الرحلة، وكان هذا تهوّرا ما فى ذلك شك، على أن أحدا فى البلاد التى رحل إليها لم يتعرف على حقيقته، وهو ما يرجع فى جانب منه إلى الصدفة وحدها، وفى الجانب الآخر إلى قلة الاتصال بين أوربا والبلاد العربية فى تلك الأيام.

وفى إنجلترا قام باديا بصنع الوسائل التى سوف يحتاج إليها فى رحلته، ثم أجرى عملية الختان لنفسه عند طبيب يهودى، منتهزا فرصة غياب زميله، الذى ذهب ليجمع بعض النباتات التى يحتاج إلى دراستها، وعندما عاد روخاس مع الفجر وجد صديقه باديا شاحب اللون، غاض الدم من وجهه، وعرف منه الأمر، وتلقى النصح بألا يخضع لهذه المغامرة المرعبة مهما كان الأمر.

ومن لندن استقلا الباخرة «جورج» إلى مدينة قادس فى جنوب إسبانيا، ووصلاها فى ٢٣ أبريل ١٨٠٣، وفى الباخرة استقر رأيهما على أن يحمل باديا اسم على بك عبد الله، وروخاس اسم محمد بن على، ويبدو أن هذا لم يكن مقتنعا بالرحلة، فتخلف فى قادس، وفى ٢٩ يونية عبر باديا إلى طنجة وحده، ولم يرد أن يعلم قنصل إسبانيا فى المدينة بالأمر، لأنه خلف أخاه فى المنصب، ويملكان فى

المغرب مصالح هائلة، ويعارضان بقوة أى تغيير فى الموقف، ووصفه باديا فى رسالة بعث بها إلى **جودوى** بأنه يملك عدد كبيرا من النساء فى منزله، وتعامله الدائم معهن جعل شخصيته رخوة طرية، وله علاقات مع كل تجار المغرب، وإذا أحس بأى خطر على ثروته فلا شك أنه سوف يستخدم كل قدراته للحفاظ على ما يملك، مما يمكن معه أن يشعر المغاربة والقناصل الأوربيين بالخطر.

قدّم على بك نفسه فى طنجة على أنه مسلم سورى، درس العلوم منذ طفولته فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا، ولهذا نسى لغته القومية تقريبا، ولو أنه محافظ على أوامر القرآن الكريم. ويرغب فى أن يعود ويتعمق فى دين آبائه، وداوم على الصلاة فى المسجد الجامع، وأخذ يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين، ووضع زيرا على باب المسجد ليشرب منه الناس، وتنبأ بالكسوف والخسوف الذى حدث فعلا فى ١٠ فبراير، وبذلك ذاعت شهرته حتى بلغت فاس وتطوان والرباط، وتوثقت صلته بكبار رجال المدينة، **العشاش** حاكمها، **وعبد الرحمن مفرج** قاضيها، **وبوعراقية** ابن أحد أولياء المدينة الكبار، ولأنه كان يجهل اللغة استخدم يهوديين سفرديين يخدمانه ويقومان بالترجمة.

وأثناء إقامته فى طنجة جاءها السلطان مكرها، لأن سفينة مغربية يقودها الريس إبراهيم لباوس استولت على سفينة أمريكية، فتدخّل الأسطول الأمريكى، واسترد سفينته، وأسر الريس إبراهيم،

ورفضوا أن يطلقوا سراحه إلاّ إذا جاء السلطان شخصيا إلى طنجة ليصدق على الاتفاقات القائمة بين البلدين ويؤكدها. واغتنم على بك الفرصة فحاول أن يرى السلطان، ويتعرف إلى الشخصيات الكبرى فى البلاط المغربى، ومن بينهم مولاى عبد السلام، الأخ الأكبر للسلطان، وكان أعمى فاجرا، منغمسا فى الملذات، غارقا فيها حتى أذنيه، ومغرماً بلقاء الأجانب والتحدث إليهم، ورئيس الديوان محمد السلاوى، وصهره مولاى عبد الله إدريس، وقد اهتم السلطان فيما يذكر بأعماله العلمية، وأذن له مولاى سليمان أن يزور المغرب، ولكنه لم يستطع خلال إقامته فى طنجة أن يرى السلطان شخصياً.

وفى ذلك الوقت تلقى قنصل فرنسا فى المغرب، وكان يحمل اسم «القومسير العام للعلاقات التجارية» رسالة من تاليران وزير الخارجية الفرنسية فى ٢١ سبتمبر ١٨٠٣ يوصيه فيها بأن «تركياً من حلب، يدعى عثمان بك، ويملك ثروة طائلة، كان موضع اضطهاد شديد، فلجأ إلى إيطاليا منذ زمن طويل، مع زوجه وبنتيه وخادم، ولم يبق من نسله إلا ابنه على، ورغب فى تربيته تربية عالية، ونظرا لمستواه الاقتصادى المرتفع أرسله فى رحلة إلى فرنسا وإنجلترا حيث تفرغ تماما لدراسة العلوم، وعرف كيف يحتفظ بعلاقات وثيقة، وصداقات قويه، مع العلماء الذين التقى بهم أو كان يتردد عليهم، وقد كان فى باريس منذ أربعة أعوام حين تلقى الخبر بوفاة والده فى قرطبة، فذهب إلى هناك ليأخذ مخلفاته، ثم قرر أن يزور البلاد

الإسلامية، وقبل أن ينفذ خطته عاد إلى فرنسا ليتعمق فى الدراسة، وقام برحلة ثانية إلى إنجلترا لكى يرتب أموره، لأن والده أودع فى البنوك البريطانية بقايا ثروته، ومن هناك أبحر إلى قادس حيث ظل زمنا، ثم رحل إلى طنجة، ولا يزال فيها حتى الآن فيما أتصور.

«وطبقا للمعلومات المشجعة التى وصلتنى عن على بك يمكن أن تثق فى كل مايقوله لك عن نفسه شخصيا، وإذا أتيحت لك الفرصة تحقق من صدق أجوبته بأسئلة مفاجئة توجهها إليه، وأدعوك إلى أن تقدم له خدمات جليلة إذا طلبها، وأن تسهم فى كل مايمكن أن يجعل إقامته طيبة فى المغرب».

وثمة رسائل أخرى توصى به أرسلها أصدقاؤه من إنجلترا إلى القنصل الإنجليزى فى طنجة، وإلى أسرة جاد الله Guedallas اليهودية، وهى تقيم فى مجادور من عمالة الساورة وتحترف التجارة، وفيها يطلبون مساعدة هذه الرحالة، وقد تأثر باديا بهذه المشاعر، نظرا لقصر المدة التى قضاها فى لندن، وقلة تحدثه عن المهمة التى سوف يقدم عليها. وكانت الرسالة الموجهة إلى القنصل الإنجليزى تحذر منه فيما يبدو، لأنه فى ردّه على وزير المستعمرات البريطانى أفاد بأنه يراقب نشاط هذا السورى الغالى (نسبة إلى بلاد الغال، أى فرنسا)، ومشيرا بأن الإسبان يبذلون جهدا كبيرا لكى يكسبوا أصدقاء فى المغرب، عن طريق توزيع أموال كثيرة.

وكانت المخاطر التى تولدت عن الرسالة الموجهة إلى آل جاد الله اليهود أكثر من غيرها ، لأن اليهودى الإنجليزى الذى كتب لهم طلب منهم أن يسهلوا لعلى بك الأموال التى يحتاجها ، ولم يخف عنهم أنه جاسوس متخفٍّ .

وقد أخطر جودوى نائب القنصل الإسبانى عن طابع رحلة باديا ، وأمره أن يضع نفسه تحت تصرفه ، وأن يكون الواسطة فى تقديم المساعدات المالية وتبادل الرسائل ، وفى الوقت نفسه كلف الكولونيل فرانسيسكو عمروس الضابط فى وزارة الدولة ومكتب الحرب أن يتابع خطى باديا ، وأضفى على الموضوع اهتماما خاصا ، وأحاطه بكتمان شديد ، ولم يشر إليه أبدا فى الرسائل التى كان يرفعها يومياً إلى الملكة ماريا لويزا .

كان عمروس يتصل بباديا مباشرة أو عن طريق نائب القنصل ، يحتفظ بكل الرسائل والوثائق الخاصة بالمغرب فى بيته ، وهو مسئول فى جانب عن الأسطورة التى حاكها المهتمون بإفريقيا حول باديا ، والمدائح التى أضفاها عليه غير مخلصة وتتسم بالمبالغة الشديدة ، وكان يهدف من ورائها إلى أن يمدح وزير الحربية بطريق غير مباشر ، فهو يدعوه بالمقدام والفطن والنبيل ، الذى يريد أن يقدم مملكة كاملة هدية لإسبانيا ، ولم تواتِ أحد قبله الشجاعة ليختتن حباً فى العلم ، وهو رجل يجرى فى عروقه دم الأبطال الإسبان الذين غزوا العالم الجديد .

وصل **عمروس** إلى **طنجة** فى الوقت الذى وصل فيه **على بك**، وهو الاسم الذى سوف يحمله باديا منذ الآن، وبقى فيها أربعة شهور كاملة بعد خروج على بك إلى مدينة فاس، أى إلى فبراير ١٨٠٤. وفى مدينة **طنجة** تبادلا الرأى حول الخطة التى وضعها على بك لفتح المغرب، وفى الأيام التى أمضاها وحده حاول أن يضفى مزيدا من التدقيق فى القسم الخاص به.

• • •

كانت العلاقات الإسبانية المغربية تمر فى هذه الفترة بمرحلة حرجة، اقتضت مزيدا من العناية بهذين المغامرين، وتأتى مشكلة صيد السمك فى المقدمة [لاحظ أن المشكلة لا تزال قائمة حتى الآن] والحاجة إلى إذن السلطان لكى تستطيع إسبانيا استيراد القمح، لمواجهة اعوام الجدب، وقلة المحصول التى تمر بها. وكانت المبادلات التجارية قد بلغت أوجها فى عهد **سيدى محمد بن عبد الله** (١٧٥٦ ــ ١٧٩٠)، ولكنها توقفت باستيلاء **مولاى يزيد** على العرش (١٧٩٠ ــ ١٧٩٢)، وما كانت إسبانيا تحصل عليه كانت تستورده من الجنوب، حيث الأمير الثائر **مولاى هشام**، وكان يتلقى الدعم من إسبانيا.

وبعد انتصار **مولاى سليمان**، وكان فقيها متدينا، حريصا على تنفيذ الشريعة الإسلامية، استجاب لرغبة الجماهير الثائرة فى الرباط، والتى كانت تطالب بمنع التجارة مع الكفار، فأصدر قرارا بمنع تصدير

القمح من ميناء الرباط، ومع أن إسبانيا كانت قد وقعت عام ١٧٩٩ معاهدة سلام وصداقة مع المغرب، وتنظم شئون الصيد والتجارة والإبحار، لكنها لم تُطبَّق واقعا، ذلك أن الطاعون الذى اجتاح المغرب فى تلك الأيام أدى إلى تعطيل الاتفاقيات التجارية، ولم تكن إسبانيا تسمح بأن يدخلها شىء من المغرب غير البريد، مرة كل أسبوعين، خوفا من العدوى، وعندما انتهى الوباء رفض المغرب تطبيق المعاهدة، ولم يسمح بالتصدير إلا فى عام ١٨٠١، ومن مينائى الدار البيضاء ومجادور، ومع ذلك فإن طلبات القمح لم تنفذ.

فشلت مهمة **عمروس** فى الحصول على قمح من المغرب، وفى ذلك الوقت كانت الأخبار والتقارير تشير إلى هجوم محتمل على مليلة يقوم به **مولاى سليمان** شخصيا، ولم يكن السلطان يخفى رغبته فى أن يهاجم مدينة سبتة ويستولى عليها، وطلب مدافع من إنجلترا لحصارها، وفى عام ١٨٠٧ عرض وزيره **السلاوى** على القنصل البريطانى أن ينفرد وطنه بحق الحصول على القمح والحبوب من المغرب مقابل أن تقوم القوات البريطانية بغزو سبتة وتسليمها للمغرب.

كان **جودوى** يعرف أن **باديا** مضى إلى المغرب كعربى لا كإسبانى، أمير عباسى ينحدر من قبيلة الرسول عليه الصلاة والسلام، والواقع أنه لم يقل فى المغرب شيئا من هذا، وإنما كان يُعرف فقط بالحلبى دون عباسى أو أمير، ولعله أخذ هذا اللقب عند عودته إلى أوربا. وألح عليه جودوى أكثر من مرة أن يكسب ثقة السلطان كلما

أتيحت له الفرصة، وأن يوعز إليه بطلب مساعدتنا وتحالفنا ضد المتمردين الذين يقاتلون إمبراطوريته ويهددون عرشه، غير أن الأعوام التى أمضاها على بك فى المغرب كان هذا يتمتع بالرخاء والازدهار والسلام.

وفى رسالة أخرى بحث جودوى على بك: إذا لم تستطع أن تقنع السلطان بما سبق فعليك أن تكتشف المملكة بوصفك رحالة وأن تتعرف إلى مختلف القوى، وأن تعلم آراءها، وأن تستخدم ذكاءك مع أعداء السلطان، حتى إذا دخلوا فى حرب معه يمكنهم أن يعتمدوا على مساعدتك، وأن نتفق على مصالحنا المتبادلة، وأن تكون لنا غاية أبعد: أن نصبح سادة جانب من الأمبراطورية المغربية، وهو ما يعنينا أكثر.

أعد على بك خطة لفتح المغرب، أو جانب كبير منه على الأقل، تعتمد على استثمار الخلاف القائم بين السلطان وفقهاء مدينة فاس، والسخط السائد بين جماهير الرباط وسلا لضياع تجارتهم مع المسيحيين، والاتصال بشيوخ القبائل فى جبال الأطلس، وإقناع السلطان بالتحالف مع إسبانيا وطلب العون منها، فإذا رفض ذلك عرضه على رؤساء المتمردين وأقنعهم به، وبالتعاون فيما بينهم، وبلغت به الأمانى غايتها فراح يحلم بنفسه سلطانا يجلس على عرش المغرب، أو يضع عليه سلطانا جديدا من صنعه.

والواقع أن الاثنين، على بك وعمروس، كانا يجهلان الموقف

العسكرى فى المغرب تماما، وأكثر جهلا بموقف القبائل فى جبال الأطلس، ولم تكن هذه تخضع للسلطة المركزية، ولم يسبق أن زارها رحالة أجنبى، ولم ير على بك أى رئيس من رؤساء القبائل الجبلية، وحين عرض على السلطان إقامة تحالف بينه وبين إسبانيا، كان رد السلطان عليه، بأنه يفضل أن يقود على بك جيشا يعيد به الإسلام إلى إسبانيا.

وقد قام على بك بهذه الرحلات، طبقا لاعترافاته، مصحوبا بحرس محدود جدا: أربعة جنود رافقوه من طنجة إلى فاس، واثنان عند الخروج من هذه، وخمسة فى رحلته إلى مجادور، وهو يكفى للبرهنة على أن أهميته لدى البلاط المغربى لم تبلغ الحد الذى ينسبه لها من الأهمية.

وعمليا، على النقيض مما فى خططه، تجنب أن يقترب من الأراضى التى فى قبضة الثائرين، وحين أراد الانتقال من فاس إلى مراكش لم يذهب إلى هذه مباشرة حتى يتجنب أى لقاء مع قبيلة زمور الثائرة، وإنما انتقل من فاس إلى الرباط، ومن هذه إلى مراكش. وفى هذه المدينة الأخيرة، وكانت العاصمة، أحسن السلطان استقباله، وعامله كزائر ممتاز، وأنزله فى قصره الريفى فى سملالية، وكان ينزله السفراء الإسبان فيما سبق، وأسكنه بيتا فى المدينة، وبعد إقامته خمسة أسابيع فى مراكش، قام فى ٢٦ أبريل برحلة إلى ميناء مجادور، وعاد منه فى ١٥ مايو.

وتعد هذه الفترة من أيام على بك فى المغرب ألمعها ، نظرا للرعاية التى أضفاها عليه السلطان ، ولدينا عنها تقريران ، أحدهما كتبه **على بك نفسه** ، والثانى كتبه **جيمس جرى جاكسون** نائب القنصل البريطانى فى مجادور ، وطبقا لروايته ، كان السلطان مبهورا بمعارف على بك الفلكية ، ومتحمسا له ، ولم يغب عن اعتنائه لحظة واحدة ، مما أثار غيرة منجم القصر وحسده ، وشعوره بالخوف على مهنته ، فحاول أن يدس بينه وبين السلطان ولكنه لم يوفق .

وتقرير **جاكسون** بالغ الأهمية ، لأنه يصحح أخطاء **على بك** ، ويطامن من مبالغاته ، فإذا قال على بك أنه حقق فى أدنى جنوب المغرب شعبية هائلة ، وأنهم كانوا من أنصاره ، ويجيئون لزيارته باستمرار ، ذكر جاكسون نقيض هذه الرواية ، وأشار إلى العداوة التى يكنها باشا مجادور لعلى بك ، وحتى باشا مراكش نفسه. كان ينطوى على مثلها ، وكان الأول منها يشك فى تنكره ، فجعله يزور القنصل الإسبانى ليكتشفه ، وبعث به إلى تاجر فرنسى كان يتصرف كممثل شبه رسمى لفرنسا ، ولكن الأمرين لم يؤديا إلى نتائج حاسمة ، فقد أجاب كلاهما بأنه يتكلم اللغتين كواحد من أهلها .

وفيما يتصل بباشا مراكش ، وهو **عمر بوستة** ، فإن **على بك** يقدمه بوصفه صديقا له ، على حين يشير **جاكسون** إلى أنه كان يشك فى شخصيته ، فيضيق عليه ، ولاحق الذين يترددون عليه ويطلبون أموالاً منه ، ومنعه من زيارة الجنوب بحجة أن السلطان منع رحيله .

ويذكر جاكسون أيضا أن على بك اتخذ لخدمته إسبانيين كانا قد ارتدا عن المسيحية واعتنقا الإسلام، لأنه دين أسلافهم، وفى الوقت نفسه ينقلان إليه الأخبار، وكان بيته يضم رئيسا للخدم من أهل البلد، وهو الشريف **مولاى أحمد**، **أو حامد** وذكره على بك فى الرحلة مرة واحدة، إلى جانب عدد من النساء.

ولما كان المغاربة ينظرون إلى الرجل غير المتزوج نظرة شك وسوء فقد حصل فى طنجة على جارية، وتلقى أخرى هدية فى فاس جارية سوداء، ولم يكن راضيا بها، ولم يخف اشمئزازه منها، بسبب ملامحها وتقاسيم وجهها، ونتن رائحتها، وفى مراكش تلقى جاريتين أخريين هدية من السلطان، واحدة بيضاء والأخرى سوداء، حملها إلى بيته لينضما إلى البقية، ولكن الرجل كان زاهدا فى الجنس، ويرتعب منه أحيانا، وبقيت الجوارى محبوسات فى البيت لا يتصل بهن سيدهن إلا نادرا، ومن هذا الاتصال النادر رزق بولد من إحداهن.

فى **مراكش** عاد **على بك** يحلم بخطط الأمس من جديد، فكتب من مجادور إلى **جودوى** فى ١٥ مايو ١٨٠٤ رسالة يؤكد فيها علي أن تنفيذ الخطة قد حان، ويجرى بالمبالغة إلى آخر مداها فيقول: كل الباشوات هنا خدامى، وأنا سيد هذه الإمبراطورية، بالحب أو الخوف أو الاحترام، وظهورى على رأس ثلاثة آلاف جندى يجعلهم يسارعون بتقديم التاج إلىّ، وأنا الآن اعتمد على عشرة آلاف، وأنفذ ما ذكرته لكم فى الخطة دون أن أخرج عليها، وقد

احتاج إلى معاونة القوات الإسبانية فى سبتة، فأرسلوا إليها ما ترونه ضروريا من قوات، وليحملوا معهم ألفى بندقية، وأربعة آلاف «سونكى»، وألفى مدس وبعض المدافع من مقاسات مختلفة، ولا أحتاج الآن لمزيد من الأموال.

وفى الرسالة أيضا تكرار لما سبق أن قاله من أن الشعب ساخط، وأن أبناء **مولاى سليمان** عاجزون عن خلافته على العرش، ولكنه لا يقدم أية معلومات عن حواره مع السلطان، ولا من هم الذين سوف يشتركون فى الثورة عليه، والجديد فيها أن قبائل دكالة وسرغنة وموظفو المخزن يحنون إلى عهد **مولاى يزيد**، ولم ينس أن يشير إلى أن زيادة القوات الإسبانية فى سبتة يمكن تبريره بأنها لحراسة العدد الكبير من السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ويوجدون فى سجنها.

ويلح على المرء سؤال، عرض أيضا للباحثين الأوربيين بعامة، والإسبان من بينهم بخاصة: لماذا طلب على بك هذا القدر من الأسلحة لدعم ثورة لا توجد فى عالم الواقع؟ أتراه أراد أن يخلق جيشا خاصا يعمل لحسابه على الطريقة التى كان يعتمد عليها **الشريف وزان**، وبهذا تنمو شخصيته، أم ظن أن مجرد السلاح يكفى لإشعال الثورة ضد السلطان، ولعله ــ وهو ما أرجحه ــ كان واثقا أن السلاح لن يأتى فى النهاية، وبذلك يجد مبررا لفشل مهمته.

وقد اهتم **جودوى** ــ كعادته ــ بالأمر، وكتب إلى قواد الجيش فى جنوب الأندلس بأن يكونوا على استعداد لتقديم المساعدات

الضرورية حين تطلب منهم، وتعزيز حامية سبتة بعشرة آلاف رجل، وأن يبرروا حركتهم هذه بأنهم فى مناورات. وأطلع رئيس الوزراء الإسبانى الملك كارلوس الرابع على تقارير على بك، وحدثه عن المكانة التى بلغها فى البلاط المغربى، ولم يكن الملك سعيدا بما يسمع، ولا راضيا عن وسائل الرحالة الإسبانى، وخائفا من تدخل القوى الأجنبية وبخاصة فرنسا، فحاول أن يضع رئيس وزرائه الحالم على أرض الواقع، ورفض الموافقة على خطط باديا ومطالبه، وتوقفت كل الاستعدادات.

وقد أسف المركيز سولانا على القرار الملكى، ورأى أنه أضاع مجدا باذخا على إسبانيا والملكية وجودوى، وأن تنفيذ خطط على بك كان انقلابا ستدهش له أوربا، ويعلى من وضع إسبانيا وسياستها، ويثأر لذكريات سبعة قرون لا تمحى من العبودية والذل لأجدادنا، فرضها عليهم هؤلاء الأفارقة الكريهين، وتنتقم للضرر الذى تسبب لنا جيرتهم العابثة، لطابعهم الوحشى الذى تمليه عليهم طبيعتهم أحيانا، ولسماحهم لخصومنا الأوربيين بإقامة الكثير من المنشآت على شواطئهم لإيذاء تجارتنا وبحريتنا.

وكل هذه الاعتبارات يجب أن تدفعنا إلى ضرورة تأمين استقلالنا، وأن نضع هؤلاء الهمج فى مقام يستحيل عليهم فيه أن يحدثوا لنا ضررا. ولقد كان ممكنا أن يقوم الملكان الكاثوليكيان

[فرناندو وإيزابيل اللذان استوليا على غرناطة آخر معقل أندلسى عربى] أسلاف ملكنا بالقضاء على قطاع الطرق الكريهين هؤلاء، ولكن نقص حمية الشعب، والبخل الذى لم يكن يرى أبعد من خزائن الثروة فى العالم الجديد، والدخول فى تحالفات مع قوى أوربا الأخرى أو ضدها، كانت عقبة فى طريق تدمير هؤلاء الهمج، الذين يواصلون إزعاجنا بقوة، منذ **كارلوس الأول** حتى اليوم، ومن الضرورى أن نلوح لهم دائما بقوتنا على نحو كاف، دون أن نصل إلى اجتثاثهم ...».

وأمضى **جودوى** صيف ١٨٠٤ يحاول إقناع الملك، ولكن هذا لم يعره سمعا، وبقى عند موقفه رافضا، وفكّر رئيس الوزراء أن يعصى الملك، وأن يصدر قرارا بتنفيذها على مسئوليته، ولكن مرض **على بك** أعفاه من هذا الأمر، وعلى أية حال إذا لم يستطع أن يرسل إليه قوات فلا بأس أن يرسل أموالا، وأصبحت القضية من أسرار الدولة العليا، ولم يكن يعرف بها أحد غير **جودوى وعمروس وباديا، والمركيز سالونا** على نحو أقل، ونائب القنصل الإسبانى فى مجادور. وقد تلقى على بك رسالة باعتراض الملك، وعشرة آلاف دوروس عن طريق نائب القنصل، لخدمة الأغراض التى يسعى إليها.

فى هذا الوقت كان **على بك** يقيم فى قصر السلطان الريفى فى **سملالية**، ويشعر بخطر إرسال السلاح والقوات، فلما تلقى خبر الاعتراض استراح تماما، وألقى مسئولية الفشل على هذه الظروف،

إذ كان يستحيل عليه ــ فيما يرى ــ أن ينفذ مخططه على غير رغبة البلاط الإسبانى، ولو أنه ردّ على هذه الرسالة، مظهرا امتعاضه من القرار، وملوحا بأنه كان من العرش قاب قوسين أو أدنى، وأن القرار وضعه فى موقف حرج، وأنه بإزائه كما لو كان قد فقد عشر معارك حربية.

إزاء هذا القرار عاد على بك إلى فكرته الأساسية من الرحلة إلى قلب إفريقيا مخترقا الصحراء، ورأى ذلك أفضل من الرحلة إلى المشرق للقيام بالحج، فلكى يرحل إلى المشرق سوف يحتاج إلى إذن من السلطان، وطبقا لجاكسون حصل على إذن باختراق جبال الأطلس فى اتجاه الجنوب، وانضم إلى إحدى القوافل فعلا، ولكن باشا مراكش كان يشك فى تصرفاته، فتدخل لدى مولاى سليمان، وألغى التصريح المعطى له، فلم تبق أمامه وسيلة لكى يتابع رحلاته غير أن يتجه إلى مكة.

وبينما باديا فى مراكش يسترد عافيته ويقلب أموره، وقع حدث عالمى جعله يعيد حساباته مرة أخرى، ففى ديسمبر من العام نفسه توقفت العداوة بين فرنسا وحليفتها إسبانيا لمواجهة إنجلترا، وفى مناخ ينضح غضبا من أسر إنجلترا أربع فرقاطات إسبانية، استطاع جودوى أن يقنع كارلوس الرابع بالموافقة على خطة غزو المغرب، وتلقى على بك رسالة من عمروس يعلمه فيها بأن الملك منح القائد العام الإسبانى صلاحية اتخاذ مايراه فى صالح الملكية فى هذه الحرب

الجديدة ضد الإنجليز، وهم يتخذون من جبل طارق نقطة انطلاق، وهو إسبانى ومن موانى المملكة، وفيه يموّنون أساطيلهم التى تحدث لنا خسائر لا تحصى، وتتخذ منه مراكبهم الصغيرة والكبيرة مرفأ تلوذ به، ويسبب لنا حصاره كثيرا من النفقات.

وفى اليوم نفسه وجه جودوى رسالة إلى المركيز سالونا يعلمه فيها بأن «الرحالة إلى إفريقيا يصر على أن نقوم بعملية فى تلك القارة يمكن أن تكون مفيدة جدا لإسبانيا فى الظروف الحالية، وعادلة للغاية، وبرهن على كثير من الشجاعة والفطنة. وقد مُنح على بك رتبة بريجادير فى الجيوش الملكية الإسبانية فى ١٦ أغسطس ١٨٠٤، ولو أن أحدا لم يناده بهذا اللقب، إلا بعد ذلك بعشر سنوات خلال منفاه فى باريس.

وضع على بك خطة جديدة لغزو المغرب، ضاع نصها ولم يصلنا، وأقرب الظن أنها قريبة الشبه بالأولى، وتهدف إلى إثارة قبائل منطقة تدلا على السلطان، وأن تنضم إلى سيدى العربى والولى بوجعد وسكان شرق المغرب فى تمردهم، وأما الأسلحة المطلوبة فهى نفس ما طلبه فى المرة السابقة.

وحاول على بك فى رسائله أن يعطى الانطباع بأنه يتمتع بمكانة عالية فى البلاط المغربى، وهو ادعاء تكذبه الوقائع، فقد تواجد مع السلطان فى فاس ولكنه لم يلقه، وحين سقط السلطان مريضا، ولزم

سريره، واستدعى أطباء إنجلترا، وأغمى عليه فى إحدى صلوات الجمعة أمام الجماهير، وشاع موته فى المغرب كله، أشار عليه السلاوى رئيس الديوان أن يذهب إلى الشمال ليقضى على هذه الإشاعات. وعندما رحل السلطان فعلا لم يصحبه معه، ولو كان حفيا به، كما أدّعى لنفسه لضمه إلى حاشيته، ولم تكن تخلو من الأجانب.

ومن جديد يتحدث على بك إلى جودوى عن الخلاف بين السلطان وسيدى العربى، وأنه فى انتظاره مع رجاله، ولكن العربى لا يحضر، وهو يوزع الذهب رشاوى على من يتوقع منهم الثورة، أو هكذا يقول، فإذا فشلت خطته مضى إلى الجزائر، ومنها سوف يلوذ بالجبال.

ولكن على بك لا يكاد يبلغ مدينة فاس حتى يحث باشا المدينة بغرضه، فينصحه أن يرحل بأسرع ما يمكن، ويسلمه رسالة مطولة من السلطان، ترجها على بك نفسه إلى الإسبانية، ووجدت فى أوراق جودوى، وقبل أن يبارح المدينة استطاع أن يقابل مولاى عبد السلام، فأعطاه هذا رسالتى توصية، واحدة لداى تونس، والأخرى لباشا طرابلس الغرب. وعندما وصل إلى مدينة وجدة بهدف أن يرحل إلى مصر علم بثورة سكان وهران على الحاكم التركى، مما جعل السير فى الطرق مستحيلا، وبخاصة أنه لم يكن يملك غير حراسة محدودة. وفى هذا الوقت بدأت موارده تنقص، وخاف على

نفسه من رجال البلاط، فقد ينقلون إلى السلطان شكوكهم ومخاوفهم عن هويته وغاياته، فلجأ إلى رئيس قبيلة صغيرة قريبة من وجدة، هم بنو أبى حمدون، وطلب منهم أن يمدوه بالحراس والحماية فى وجهته إلى أراضى بنى سوس.

وعلى مسافة ميل من وجدة اعتقله فريق من الجند، بقيادة الديلمى، أرسلهم السلطان، ولديه أوامر بألاّ يتركه يرحل قبل أن يتأكد من الأمان فى الطرق التى سوف يسلكها، وغضب على بك من اعتقاله، وأرسل بريدا إلى مولاى عبد السلام، وعندما تلقى هذا رسالته سمح له بأن يرحل فى ٣ أغسطس، ولكن ليس شرقا إلى تلمسان، وإنما غربا نحو طنجة، حيث يجب أن يأخذ الباخرة.

وفى حراسة الجند تابع طريقه نحو الغرب دون أن يدخل مدينة واحدة إلى أن بلغ العرايش، حيث دخلها فى ١٧ أغسطس، وكان يحكمها محمد السلاوى وزير السلطان، وسبق لعلى بك أن تقابل معه فى طنجة ومكناس والرباط، وإليه عهدوا بطرد على بك فى ١٣ اكتوبر، وأن يمنع أى إنسان من حاشيته من الإبحار معه، ولم يكن أمامه إلاّ أن يطيع، وظلت زوجه مهنة المغربية على الشاطئ وحيدة، وقد حيل بينها وبين زوجها، على حين أصابته إغماءة من الحزن العنيف لترحيلة بالقوة.

• • •

وفى ١٣ أكتوبر ١٨٠٥ صعد على بك مركبا يقوده الريس عمر، بعد ضجيج هائل، فى طريقه إلى طرابلس الغرب، وفى الطريق واجهت المركب بعض العواصف، وقامت بزيارة قصيرة لجزر قرقانة على مقربة من الشاطئ التونسى، وفى ١١ نوفمبر وصل طرابلس مع مجموعة من الحجاج كانت ترافقه، وخشى أن يكون الوزير السلاوى قد أخبر باشا ليبيا بأسباب طرده من العرايش، فاتخذ منذ البدء موقفا متحفظا. ومع ذلك استأجر بيتا كبيرا نعرفه من الرسوم التى خطها له بنفسه، ولم يلبث أن أقام علاقات مع القناصل والجاليات الأجنبية، ودون أن يفقد عادة التبجح، وأنه ينحدر من عائلة عريقة، أخذ يؤكد أن يوسف كرمنلى حاكم ليبيا، اتخذه أخا، وودعه باكيا، عند رحيله إلى الإسكندرية فى ٢٦ يناير ١٨٠٦.

وقد تركت طرابلس انطباعاً ممتازا فى على بك، إذ وجدها عامرة بالمبانى والمتاجر وغيرها، على النقيض تماما مما رأى فى المدن المغربية، وأحس برد الفعل نفسه فى مينائى مودون وموريه اليونانيين، حين ضلّت السفينة وجهتها، وحملتهم خطأ إلى هناك. واضطر على بك أن يصطدم بالقبطان بعد أن صبر عليه طويلا، وكان بحّارا قديما، عديم الكفاءة تماما، لا يكاد يفيق من الشراب، وداخله الشك فى هذا الرحالة الإسبانى، يحمل عددا من الآلات الفلكية، يحاول أن يسجل الطريق، وأن يهديه إليه، وفجأة ما كادت السفينة تقترب من الإسكندرية حتى غير وجهته، ويمم إلى أعلى البحر، فواجهته

عواصف عاتية، فتوقف فى ليماسول من قبرص فى ٧ مارس. وظل على بك فى قبرص أكثر من شهرين، ولم تكن له غاية دراسية فيها، فاكتفى بوصف الأطلال المتناثرة فى الجزيرة، ووجد أسقفها يعيش كأمير مستقل تقريبا مقابل جزية يدفعها للخليفة العثمانى.

وأخيرا وصل الإسكندرية فى ١٢ مايو ١٨٠٦، ويقول عنها إنها كانت مدينة متواضعة، لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف جلّهم من العرب، ولكنهم فى العشرين عاما الأخيرة تجاوزوا مئة ألف نسمة، وقد أعجبته، وأثنى عليها، وعقد مقارنة بينها وبين مدينة بلنسية فى إسبانيا، ولا ندرى لماذا بقى فيها قرابة نصف عام، وبعدها اتجه إلى القاهرة عن طريق النيل، فى رحلة دامت ثلاثة عشر يوما، وأوهم الذين فيها أنه مبعوث إسلامى فى طريقه إلى مكة، فوجد من شيوخها وعلمائها استقبالا حسنا، ومن مصر عاود الكتابة إلى جودوى يحاول أن يُحيى فى أعماقه الأحلام القديمة، ولهذا داوم الاتصال بالجالية المغربية التى تقيم فى القاهرة، وكانت كثيرة العدد، ولها شىء من نفوذ بين رجال الدين وفى عالم التجارة.

وفى القاهرة وثّق علاقته بمولاى سلامة المطالب بعرش المغرب، وكان شمال المغرب: تطوان وطنجة والعرايش وشاون ووزان، نادى به سلطاناً بعد وفاة مولاى يزيد، ولكنه هزم أمام أخيه سليمان، فلجأ إلى مصر، وأقام فيها عشر سنوات كاملة فى انتظار اللحظة المواتية.

وفى القاهرة بدأت رحلة على بك تأخذ وجهة جديدة، فأصبح الهدف العلمى منها يجىء فى المقدمة، إلى جانب فكرة أخرى كانت تتردد فى أعماق جودوى ووشوش بها فى مسامع باديا عند بدء الرحلة، وهى إمكانية فتح طريق تجارى جديد بين إسبانيا والفلبين يمر عبر مصر، عن طريق الإسكندرية ــ القاهرة ــ السويس. وفى هذه، كما فى غزو المغرب، لم يستطع على بك أن يقوم بأى عمل جاد، واكتفى بأن يقدم معلومات مفصلة عن الإنتاج الذى رآه فى الأسواق والمتاجر فى طرابلس والإسكندرية والقاهرة.

وتكتسى روايته للأحداث السياسية فى هذه الفترة أهمية بالغة، فقد وصل القاهرة فى اللحظة التى بلغ فيها محمد على أوج توهجه، وشهد لحظة تمكنه نهائيا من الحكم، وتصبح شهادته وثيقة إذا عرفنا أنه، فيما يبدو، استطاع أن يكون على اتصال مباشر، ومتعدد، مع بعض أبطال ممثلى التغيير، مثل: قبودان باشا التركى، والسيد عمر مكرم، وحتى محمد على نفسه.

وذو أهمية بالغة أيضا حديثه عن الوهابيين فى الجزيرة العربية، ويقدم لنا موجزا لجذور القوى الكبرى التى لاتزال تواصل سيرها متواجهة فى عالم الإسلام اليوم: الاندفاع نحو التحديث، مع الإعجاب الأعمى بالغرب، ويمثله محمد على، والبحث عن هوية ذاتية إسلامية خالصة، تطمح فى العودة إلى ماض تراه مثلها الأعلى.

وما لبث الصدام أن وقع بين الاتجاهين !.

• • •

لم يكن باديا أول أوربى يزور مكة، فقد سبقه إليها برتيما لودوفيكو، الفارس الرومانى، فى ١٥٠٢، والأمير الإنجليزى جوزيف بتز ١٦٨٠، وكلاهما ترك رواية مليئة بالخرافات والأساطير والأراء الشخصية الجائرة، وبعدهما جاء نيبور الدانمركى عام ١٧٦٢ بتكليف من ملك الدانمرك، ولكنه زار شاطئ جدة، واليمن، والجانب الجنوبى من الجزيرة العربية من حضرموت إلى عمان، وفى هذه أخذ السفينة إلى بومباى. ولكن إلى باديا يرجع الفضل أكيدا فى أننا نملك أقدم رسم وأدقه لموقع مكة الجغرافى، وللمشاهد الإسلامية القائمة حولها، تصويرا باليد ورسما تخطيطيا، وعندما جاء بعده الرحالة الإنجليزى السير ريتشارد بورتون بنصف قرن من الزمان، نسخ عددا منها، وأشار كثيرا إلى رحلة على بك.

ومن الحج عاد إلى مصر فى يونية، وبعد أن أقام بها ١٥ يوما للراحة رحل إلى فلسطين، وفيها وجد أن ثلثى الرهبان من مواطنيه، ونصف نفقات الحراسة يدفعها وطنه، وقد تقتضى الظروف السياسية أن تدفعها إسبانيا كلها، حيث تتوقف بقية الأمم الكاثوليكية عن دفع نصيبها، لسبب أو لآخر. وفى أقل من أسبوعين قدم لنا وصفا تفصيليا للمعهد، ولكنيسة القبر المقدس، وحبرون، والناصرية، مع

رسوم تخطيطية، ومنها أرسل تقريرا إلى جودوى عن حالة الرهبان الإسبان، لا يزال محفوظا فى دار محفوظات بلدية برشلونة.

ومن فلسطين رحل إلى دمشق، وأمضى فيها اسبوعا، وترك لنا عنها وصفا لا بأس به، وقد استرعى الانتباه أنه فى هذه الفترة من رحلته أخذ يتنقل بسرعة، وعودنا من قبل على البطء، فهو يقف فى كل مدينة شهورا، ولم يقدم لنا تعليلا أو تفسيرا، أو ما نستطيع أن نلتقط منه السبب، ولكن توصلنا إليه عن طريق آخر، فقد أورد الرحالة الفرنسى الكونت فوربين فى كتابه عن رحلته إلى الشرق، وصدر فى باريس عام ١٨١٩، أنه حين زار محمد على فى تلك الأيام، وكان يحكم مصر وسوريا وفلسطين، حدثه عن شخصية على بك هذا، وأنه ليس عربيا ولا مسلما، وإنما هو أوربى جاءنا متخفيا فى هذا الزى، ووراء الاسم العربى، ونحن نعرف حقيقته، ويقول الرحالة الفرنسى إن محمد على كان يعتمد على شبكة قوية وهائلة من رجال المخابرات، وأن الخبر انتشر فى أنحاء الدولة، وأن مفتى دمشق عرف بالأمر أيضا، وهكذا وجد على نفسه، لأول مرة فى حياته، فى حاجة إلى أن يهرب ويختفى.

وهاربا من محمد على أصبحت القسطنطينية تمثل بالنسبة له حصن الأمان، فاتجه إليها من دمشق، ويلفت النظر أنه لا يكاد يحكى شيئا عن حلب الموطن المزعوم لأسرته، وفى عاصمة الخلافة أقام فى بيت رئيس البعثة الإسبانية مركيز المنارة، وكان هذا صديقا

قديما له، وخلال إقامته التى امتدت شهرا ونصف شهد التمرد الذى أزاح سليم الثالث وجاء بمصطفى الرابع خليفة، لأن الأول كان من دعاة التحديث، وكان الثانى معاديا له، ويعتمد على العناصر الأكثر رجعية، ولو أن خلافته لم تطل غير عام، وأسف على بك لهذا التغيير، وأعتبر تركيا أكثر البلاد التى رآها همجية.

• • •

فى ٧ ديسمبر ودّع القسطنطينية، وفى ١٩ منه عبر حدود الإمبراطورية العثمانية، وبلغ فيينا فى ١٤ يناير ١٨٠٨، وأقام فيها حتى ٢٤ فبراير، ولا توجد أية معلومات عن إقامته هذه، وعندما وصل ميونخ عانى ثانية من مرض الصفراء، وكان قد اضطره فى مراكش أن يلزم السرير ثلاثة أشهر، وفى هذه المرة ظل الموت واقفا بالباب ينتظره طوال شهر ونصف.

وصل باريس يوم الأحد ١٧ من أبريل، ولم يبق فيها فقد غادرها إلى إسبانيا، وتوقف فى بايونا على الحدود، وبلغها فى ٩ مايو، ولما يشف من المرض، ووجد مجلس البلاط الإسبانى مجتمعا، ورأى الملك كارلوس الرابع، وقد أزيح عنه التاج، وأصبح جوزيف الأول شقيق نابليون بونابرت هو الملك، وطبقا لعلى بك فإن كارلوس قال له: «.... إنك تعرف أن بلادنا قد احتلتها فرنسا، وأن ثمة إمبراطورا إلى جانبى، لم أعد أنا شيئا، إذهب إلى الإمبراطور وتحدث إليه».

وعندما أبدى على بك رغبته فى أن يتبع الأسرة الملكية المعزولة رد عليه الملك: «لا .. لا .. من مصلحتنا جميعا أن تخدم نابليون».

عاد باديا إلى وطنه بعد رحلة دامت قرابة خمس سنوات، ولشد ما وجد إسبانيا قد تغيرت!.

ترك وطنه منهكا، انهارت كل مقوماته الأصلية، وتراجعت عاداته وتقاليده وأدبه أمام الغزو الثقافى الفرنسى، ونماذج الحياة الفرنسية، تركه مستقلا، ولكنه فى حشرجة النزع الأخير!.

وها هو يعود إليه فيجده محتلا بقوات فرنسية، وإذن فقد كان الغزو الثقافى الفرنسى، وهزيمة المجتمع الإسبانى تجاه التقاليد الفرنسية الزاحفة، طلائع الإحتلال العسكرى، ولكنه وجد مع جنود فرنسا وضباطها شيئا لم يره طوال حياته، وجد الشعب الإسبانى، جلت الأحداث صدأه، وصهرت الأزمات معدنه، فهو متحفز للوثوب والثأر، ينقصه السلاح والقيادة والتنظيم ولكن لاتعوزه روح الشجاعة والاستبسال والفداء، ولم تكن حرب الإسبان مع الفرنسيين قتال جنود تجاه جنود، وإنما كانت معارك اشترك فيها الشعب كله: الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والصبيان، العمال والزراع والموظفون والطلاب، وكل الطبقات، وكان هتاف الجميع: الموت لفرنسا!.

لكن الرحالة الإسبانى العائد من الشرق لم يستطع أن يتفهم الأحداث ويتجاوب معها، ويندمج مع أولئك الذين لا يشغلهم غير

تطهير بلادهم من الاحتلال الفرنسي وإنما كان همه تدوين رحلاته وتنظيمها ونشرها، واتصل بجودوى فقدمه إلى الإمبراطور نابليون الذى اهتم بالرحلة، وعهد إلى حاجبه أن يتحادث مع باديا حولها على مهل، وأن يكتب له تقريرا عنها. ولم يظهر نابليون أثناء مقابلته للرحالة أى أهتمام بخطته لغزو المغرب، وعلى حين يؤكد باديا أن الإمبراطور لقيه مرات عديدة، وأنه تحدث إليه بشأن الموضوعات الإفريقية، إلا أن مصادر أخرى وثيقة تقول إن لقاء الإمبراطور له لم يزد على مرتين.

بعد يومين من وصول باديا إلى مدريد فى ٢١ يولية ١٨٠٨ نشر مطبوعا يتضمن موجزا لحياته وملخصا لرحلاته، وصمت عن كل ما يتصل بالجانب السياسى لأن الظروف تغيرت، فقد اختفى جودوى راعيه وحاميه من المسرح، ووجد نفسه وحيدا، فقد كان لدى الحكام فى هذه اللحظات ما يشغلهم عن الاكتشافات الجغرافية فلم يعره أحد اهتماما. وعاش تسعة شهور بلا راتب، ثم عين رئيسا للإدارة المالية فى شقوبية فى ٢٥ سبتمبر ١٨٠٩، وبعدها أصبح حاكم المقاطعة، وحوله قامت إشاعات لا حصر لها، فقد اتهمته الجماهير بأنه يهودى تارة، ومختون، وأنه كان مسلما، وتارة أخرى بأنه ماسونى وزنديق، وصمت هو دائما، ولم يشر أبدا إلى أنه من قطلونية.

وفى ٥ أبريل ١٨١٠ نقل إلى قرطبة، واهتم بتحقيق إصلاحاته ومشروعاته، وأهمها الإبحار فى الوادى الكبير بين قرطبة وإشبلية،

وأدخل فيها زراعة القطن والبنجر والبطاطس، ومع ذلك فقد اصطدم مع الجماهير أيضا، واتهموه بأنه مد يده إلى أموال الأديرة، ومحاكم التفتيش، وتوجهوا بشكاواهم إلى جوزيف بونابرت فى مدريد، فأصدر قرارا فى ١٥ يونية بنقله إلى العاصمة ليكون تحت الطلب. ثم عين عضوا فى بعثة مهمتها التفاوض مع الثائرين فى بلنسية وإخضاعهم للفرنسيين، ولكنها فشلت وعادت إلى مدريد دون أن تحقق شيئا، فظل فى البلاط بدون عمل محدد، ثم ألقى القبض عليه بتهمة اختلاس المال العام، ولكن مركيز المنارة صديقه القديم توسط له فأفرجوا عنه.

إزاء هذه الظروف فكر أن يستغل عرضا كان نابليون قد اقترحه عليه قبل ذلك بأربعة أعوام، وذلك بأن يذهب إلى باريس ويعد رحلته للنشر و فذهب إليها فى أواخر عام ١٨١٢، فى اللحظات التى عاد فيها نابليون مهزوما من روسيا، وكان يحمل أمرا من الإمبراطور بالذهاب إلى باريس لكى يحرر رحلته ويترجمها ويطبعها، ولكن تنفيذ الأمر لم يكن بالسهولة التى توقعها، لأن تغير الظروف السياسية جعل من الضرورى إعادة النظر فى الأمر من جديد. وفى ١٣ نوفمبر ١٨١٣ درست لجنة من العلماء الفرنسيين ملخصا قدمه لها على بك، وأوصت بالموافقة على النشر، وأبلغه وزير الداخلية بأن وزارته سوف تحصل من كتابه على مئتين وخمسين نسخة بسعر ستين فرنكا للنسخة الواحدة، على أن يخرج العمل كاملا خلال عام ١٨١٤.

أهدى باديا الكتاب إلى لويس الثامن عشر، مطريا له ومثنيا عليه، وواصفا حكم نابليون قبله بالهمجية، وصدرت الرحلة فى ثلاثة أجزاء بعنوان: «رحلات على بك العباسى فى أفريقيا وآسيا خلال الأعوام ١٨٠٣ــ ١٨٠٧»، وألحق بها أطلسا، وخمس خرائط، ومجموعة من الرسوم تبلغ ثلاثة وثمانين. ولم يكشف عن اسمه الحقيقى، ربما ليترك الباب مفتوحا أمام عودته مرة ثانية متخفياً إلى البلاد التى تكلم عنها، ومع ذلك رفع فيما بعد تقريرا إلى الملك أسماه «ملاحظات عن الفارس باديا» تحدث فيه عن زوجه وأسرته وشجرة النسب الفرنسية النبيلة التى ينتسب إليها، ونلحظ أنه أضاف إلى اسمه العربى لقب «العباسى» عندما طبع رحلاته، وهو ما لم يجرؤ عليه لا فى إسبانيا ولا خلال طوافه بالعالم العربى.

وفى العام نفسه، ١٨١٤، وكان خصبا فى التغيرات السياسية وثّق عرى الصداقة مع أحد أعضاء معهد كلود إزوار، ويدعى ليسل دى سال، أرمل فى الثانية والسبعين من عمره، ويسكن بيتا كبيرا فى ٩٥ شارع سيفر، ويضم مكتبة ضخمة تحتوى على ستة وثلاثين ألف كتاب. وكان لهذه الصداقة نتائج مذهلة غير متوقعة، فقد تزوج العجوز من أسونثيون ابنة على بك، وهى فى العشرين من عمرها، فقوى بذلك المركز الاجتماعى لهذه الأسرة اللاجئة.

• • •

لكن لا السعادة الآسرة، ولا الأيام العاصفة التى مرت بها فرنسا جعلته يتنازل عن مشروعاته، ففى ٢٢ اكتوبر ١٨١٥ أرسل إلى وزير الخارجية الفرنسى ريتشليو مذكرتين، أولاهما عن الخدمات التى أداها لفرنسا فى المشرق، والثانية عن استعمار أفريقيا، وكان يظن أن نص هذه الأخيرة قد ضاع، ولكن عُثر عليها أخيرا، ونشرت فعلا، وفيها يرى أن استعمار فرنسا للمغرب أكثر فائدة من استعمار أمريكا الجنوبية، لقربه، وسهولة الوصول إليه، ووفرة ما ينتجه، وما يمكن أن ينتجه فى المستقبل، من السكر والطباق والنيلة والكاكاو والبن والقرمز وغيرها، والمياة الذاتية من ثلوج الأطلس كافية لإرواء مساحات شاسعة فى سهله الجنوبى، وهو جهل فظيع منه بجغرافية المغرب، إلى جانب مناجم الذهب فى السودان، وهى مصدر ثراء لا ينفد.

وتجئ صعوبة فتح هذه البلاد ــ فيما يرى ــ من أن غزوها من دولة مسيحية سوف يواجه ضرورة بمواجهة إسلامية شاملة يتحول فيها كل السكان المسلمين إلى جنود مقاتلين، وإذن فللوصول إلى هذه الغاية يجب أن نجد أميرا مسلما مستنيرا (!!) يقيم دستورا يتفق مع عادات البلد وتقاليدها ودينها، ويتنازل عن جزء من أرضها لدولة أوربية. وحتى مثل هذا الأمر لن يكون سهلا، وقد حاول الإنجليز القيام بهذه الحملة فكانت النتائج سلبية (يشير بالتأكيد إلى هزيمة الإنجليز الساحقة أمام المصريين فى موقعة رشيد عام ١٨٠٧)، كما أن الأمراء الذين

تربوا فى بلادهم الأصليون تغلب عليهم الرذائل الأربعة: الكسل، وعبادة اللذة، والبخل، والطغيان.

وقد اقترح الجنرال باديا ــ وبهذا اللقب وقع التقرير ــ أن يقوم بهذه المهمة أوربى يتظاهر بالإسلام، وألمح إلى أحداث المغرب التى أومأنا إليها من قبل، وأكد أنه لايزال يتراسل مع **مولاى عبد السلام**، الذى اعتذر له عن قرار السلطان بطرده، ودعاه إلى أن يعود إلى المغرب، وعرض عليه أن يرسل له نساءه وجواريه حيث يقيم إذا أراد. ولكن **ريتشليو** الفرنسى ليس **جودوى** الإسبانى، فلم يشارك الرحالة أحلامه، وأدرك منذ البداية الطابع الخيالى وغير الواقعى الذى كان يغلب على التقرير فيما يتصل باستعمار أفريقيا، وفى أحسن الحالات لم يظهر أى اهتمام بالموضوع.

وعاد باديا ثانية إلى الموضوع فى أبريل ١٨١٦، إذ كتب إلى **ريتشليو** حين قرأ فى الصحف اقتراح **شاتوبريان** بتكوين حملة صليبية للقضاء على القرصنة فى شمال أفريقيا و مؤكدا أن تنفيذ مشروعه «سوف يعطى فرنسا مستعمرات أفريقية غنية، أثمن مما كانت للإغريق أو الرومان أو القوط، دون أن يكلفها هذا نقطة دم واحدة».

وكما هو الحال فى إسبانيا وجد من يأخذ أحلامه مأخذ الجد، بل وجد من يلوّنها له، وبخاصة صديقة الكولونيل **مرتييه**، ويشير فى كتابه «ذكريات حرب» إلى أن **لويس الثامن عشر** استقبل باديا

بحفاوة فى لقاء خاص وقال له: «أعرف شعور بونابرت ونواياه فيما يتصل بالمهمة العظمى التى قمت بها، وهى اكتشاف الطريق إلى الهند، وأوامر نابليون رائعة، ولكن ليس من السهل تنفيذها، وسوابقها برهنت على أنه إذا كان فى وسع أحد أن يحققها فهو أنت. ولهذا أعلمك يا جنرال ألا تغيّر الخطة وإنما تمسك بها، ونفذها باسم ملك فرنسا، واعتبر هذا تكليفا منى، وخلال أيام قليلة فإن وزيرى سوف يصدر الأوامر اللازمة، وعليك بالصمت المطلق.. إنك تفهم ضرورته».

وفى ٢٣ سبتمبر ١٨١٦ توفى **ليسل دى سال** صهر باديا، فأقام هذا فى قصره بحجة تسلية الأرمل الصبية، وما لبث أن واجه مفاجأة تعسة، فقد اكتشف أن صهره لم يترك عمليا أية ثروة باستثناء المكتبة، فحاول أن يبيعها إلى بابييه أمين المكتبة الملكية، ولكن المفاوضات لم تصل إلى غايتها.

فى هذا العام انتشر كتاب باديا عبر أوربا كلها، فقد ظهرت الترجمة الإنجليزية فى جزئين تحمل عنوان: «**رحلات على بك فى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا بين أعوام ١٨٠٣ و١٨٠٧**»، مع الخرائط والرسوم التى خطها المؤلف بنفسه، وفى الصفحة الأولى تحذير من الناشر بأن الرحلة حقيقية، ورسالتين تؤكدان هذا المعنى، أحداهما من صهر باديا ليسل دى سال، وفقرة من رحلة **شاتوبريان** «الرحلة من باريس إلى

القدس» يشير فيها إلى أنه التقى مع **على بك** فى الإسكندرية، ورغم أن **هيلين ماريا وليامز** راجعت الترجمة بناء على طلب الناشر، فقد تضمنت كثيرا من الأخطاء. وفى الوقت نفسه ظهرت الطبعة الألمانية فى جزئين أيضا، وصدرت فى مدينة وايمر.

وجاءت الطبعة الإيطالية فى أربعة أجزاء، وصدرت عامى ١٨١٦ — ١٨١٧، وكانت بعضا من سلسلة كتب عن الرحلات، وتضمنت مقدمة عن حياة المؤلف، وصفته بأنه أمير من مماليك مصر، وأحد أربعة عشر بيك يكوّنون الإرستقراطية فيها، وتشير إلى أنه ولد فى تفليس من ولاية جورجيا فى روسيا، ثم أسره جماعة من همج القوقاز، ولهذا جاب فارس وآسيا الصغرى، ثم دخل فى خدمة **سليمان بك** حاكم مصر، وفى بيت هذا صنع ثروته، واختير وهو فى الثانية والعشرين من عمره عضوا فى المجلس المصرى الأعلى، وكان يتألف من ٢٤ بيك، وبالطبع نحن بإزاء تاريخ خيالى ابتدعه كاتب المقدمة، وقد وجد نفسه مضطرا أن يقدم شيئا عن حياة المؤلف، وكان يجهلها تماما.

أما الطبعة الإسبانية فلم يقدر لها أن تنشر إلا بعد أن عم الكتاب كل أوربا، فنشر فى بلنسية فى ثلاثة أجزاء عام ١٨٣٦، وفى عامى ١٨٨٨ — ١٨٨٩ تمت ترجمته إلى اللغة القطلونية التى يتكلمها شمال شرقى إسبانيا، ثم توالت طبعاته بعد ذلك فى كل اللغات. وكل

الطبعات الأولى أخفت اسمه الحقيقى، وأول طبعة أظهرت شخصيته هى التى تمت فى مدينة بلنسية عام ١٨٣٦.

ولكن الفوائد المادية التى جناها باديا من هذه الطبعات محدودة للغاية، حتى أنه لم يستطع أن يرفق مع تقريره إلى ريتشليو نسخة من رحلاته، وقد طبعت، لأنه لا يملك واحدة منها، وأول مرة رأى فيها الترجمة الإيطالية فى البندقية عام ١٨١٨، وكان حتى هذا التاريخ يجهل وجودها.

• • •

هل نفترض أنه كان فى موقف سىء اقتصاديا، كما صنع كل الذين ترجموا له، ولهذا أمطر الحكومة الفرنسية بالعديد من الخطط الجديدة؟. ذلك شىء لا يمكن تأكيده، لأن المتفرنسين الإسبان حين غادروا وطنهم إلى فرنسا مع جيش الاحتلال لم يخرجوا وأيديهم فارغة، أو جانبا كبيرا منهم على الأقل، إلى جانب أنه احتفظ فى باريس بعلاقات حميمة مع عدد من الشخصيات، وبخاصة المثقفين منهم، كما أن ترمّل ابنته حسّن موقفه نسبيا.

وبعد أربعة أعوام من الإقامة فى باريس بلا عمل، ومع أسرة عليه أن يتولى أمرها، طلب فى عام ١٨١٧ معاشا من الدوق ريتشليو فلم يتلق ردًا، فجدد الطلب متعجبا من أن خطته لاستعمار أفريقيا لم تدرس، ومتحدثا عن الخدمات التى قدمها لفرنسا، وأن

رحلاته السابقة تمت لحسابها وليس لإسبانيا، وكتب له: «أسرتى تعيش فى البؤس، على حين أن فرنسا وتجارها يجنون يومياً الملايين، ثمرة عملى وخدماتى». ولم يجد هذا الطلب ردًا مرضيا، لأن ريتشليو هاجر خلال الثورة والأمبراطورية، ولما عاد ثانية مع **لويس الثامن عشر** إلى باريس لم يشعر بأى ميل نحو الإسبان المتفرنسين، ممن خانوا ملكهم الشرعى ووطنهم، ولم يظهر أى ميل أو تأييد لتمويل خطط خيالية، ويمكن فى الوقت نفسه أن تثير غيرة القوى الأوربية العظمى ونهمها.

وفى خريف ١٨١٧ استجاب **باديا** لنصيحة جديدة، وبدأ يطرق أبوابا أخرى، ذهب إلى وزير البحرية الكونت موليه فاستقبله بجفاوة، وكذلك فعل الكونت ديكاز وزير الشرطة، وكلاهما كان من كبار عصر الإمبراطورية، ولابد أنهما عرفاه، أو سمعا به على الأقل. وعرض على موليه خطة لاكتشاف أفريقيا تبدأ بالحج إلى مكة، وهناك ينضم إلى قافلة تعبر البحر الأحمر، وبعدها يتوجه إلى قلب أفريقيا، فيبلغ تنبوكتو، ويخترق النيجر والسنغال متجها إلى الغرب حتى يبلغ سان لويس على شاطئ الأطلنطى. وقد أخضع موليه الخطة لدراسة يقوم بها معهد فرنسا، وكانت اللجنة الثلاثية التى درستها من أصدقاء باديا، فجاء ردهم يؤكد أهمية الرحلة، ويشير إلى صعوبة تنفيذها أيضا، ولو أن باديا — فيما يرون — قادر على مواجهة هذه الصعوبات، وكانت الخطة كما تضمنها الأمر الملكى الصادر بها على النحو التالى:

● أن يخترق وسط أفريقيا من الشرق إلى الغرب.

● وأن تستغرق ثلاث سنوات، الأولى فى الحج إلى مكة، والأخريان فى اختراق أفريقيا، فيدخل من الحبشة، ويمر بدارفور، ويخترق النيجر، ويخرج من السنغال.

● أن يهب الدولة الفرنسية الأوراق والمجموعات والمذكرات والخرائط والرسوم التى قام بها فى الرحلات السابقة، أو يقوم بها فى هذه الرحلة، للمناطق المختلفة التى مر بها.

على أن تبدأ الرحلة فى يناير القادم وتنتهى فى يناير ١٨٢١.

وفيما يتصل بالطلبات التى تقدم بها باديا له ولأسرته، وفى ضوء الفوائد التى سوف تجنيها فرنسا من رحلته، تقرر تعيين ابنه، وكان ضابطا فى سلاح المدفعية الإسبانى، فى الجيش الفرنسى، بنفس الرتبة وفى نفس السلاح، وأن يصرف لزوجته خلال الرحلة، أو إذا ترملت، ثلاثة آلاف فرنك سنويا من ميزانية المستعمرات، وفى حالة موتها تدفع لابنه الأصغر خوسيه مادام حيا. ويصرف لباديا نفسه عشرة آلاف فرنك مرتبا سنويا، ويدفع له المبلغ الخاص بالعام الأول مقدما فى اللحظة التى يبدأ فيها الرحلة، والخاص بالعامين الآخرين يدفع له فى عكا فى فلسطين بالعملة الذهبية التركية. ويصرف له أيضا من ميزانية المستعمرات الآلات والأدوات التى يحتاج إليها فى رحلته.

ويلاحظ أن ما أنفقته فرنسا عليه قليل جدا بالنسبة لما صرفته إسبانيا عليه، وكذلك خلت الاعتمادات الفرنسية من هدايا، أو رشاوى إذا شئت، للحكام فى البلاد التى سوف يمر بها، على حين أنه فى الرحلة الأولى حمل هدايا ضخمة لسلطان المغرب، وأموالا أخرى كثيرة وزّعها على المسئولين، وأنفق جانبا محدودا فى شكل صدقات أعطاها للفقراء والمساكين تظاهرا بالصلاح والتقوى.

وما إن وافقت فرنسا على رحلته حتى عاد إلى أحلامه القديمة من جديد، وأن كارولس الرابع ملك إسبانيا أجهض خططه، ولو استجاب له لكان حاكما على أفريقيا منذ رحلته الأولى، أو على الأقل لعاش فى أوربا غارقا فى الثراء، وقد دفعته أحلامه إلى الكذب كثيرا، وتلاشى الخط الفاصل فى ذهنه بين الآمال والواقع، وامتد هذا حتى إلى نسبه، فأخذ يكتب لموليه عن فرنسا «موطن أسلافه»، وراح يذكّره بشجرة نسب كان قد اخترعها.

لكن من الحق أيضا أن نذكر أن فرنسا لم تنخدع بأحلامه، وكان اهتمامها بخططه محدودا للغاية، ولعلها عادت إلى قناصلها فى إفريقيا ليوافوها بما حققه فى رحلاته السابقة. وربما كانت استجابتها مجرد مقامرة، مقابل نفقات زهيدة، إذ لم يكن من الفطنة فى شىء إرسال رجل تجاوز الخمسين من عمره، وصحته معتلة، لكى يخترق إفريقيا، والرحّالة الشبان الذين سبقوه إليها كثيرون، وذهبت بأرواحهم. ولعلها رأت فيها تمهيدا لما كانت تهدف إليه سرا، وهو:

اكتشاف طريق أرضى إلى الهند، والإعداد لاستعمار افريقيا، والبحث عن أسواق فى القسطنطينية ومكة، وكان باديا يحلم بتحقيق هذه المشروعات الثلاثة رغم ما بينها من تباعد يبلغ آلاف الأميال.

• • •

خرج باديا من باريس فى أواخر شهر ديسمبر ١٨١٧، وحمل اسم الحاج على أبو عثمان، وتشير الكنية إلى أبوته لابنه عثمان، الذى ولد فى المغرب بعد رحيله عنه، ويمكن متابعة خط سيره من رسائله التى كان يكتبها إلى موليه أو أسرته، فن ميلان كتب إلى زوجه فى ١٨ يناير ١٨١٨ يؤكد لها أن الغرض من رحلته فى هذه المرة أن يضمن مستقبلها اقتصاديا، وفى ٢٣ وصل البندقية، ومنها كتب إلى موليه عما أحدثته المدينة فى أعماقه: «إن نظرة عجلى كافية لكى يعرفها، فليس فيها علوم ولا أدب يستر عيان الاهتمام».

وما إن وصل على بك أبو عثمان القسطنطينية فى ١٩ مارس حتى تقدم إلى سفير فرنسا فيها، المركيز ريفيير، وفى الحال تفاهما، وتوثقت بينهما العلاقة، ويقول عنه فى رسالة له: استقبلنى بحفاوة، وهو شخص ذكى ومتفان فى عمله، ولذا رأيت من المناسب أن أخبره بسرى كى يتصرف وهو عارف».

ومن جانب آخر أعطى السفير انطباعه عن الرحالة فى رسالة بعث بها إلى **موليه**: «رأيت الرحالة **الحاج على أبو عثمان** يدخل مكتبى، وفيما بعد تعرفت عليه جيدا، واستمعت إليه باهتمام حقيقى، وأعجبت بأفكاره عن الحاضر والمستقبل، وشغلت به، وبإقامته، وبخطط رحيله، وكان يريد أن يذهب إلى **حلب وطرابلس الشام**، وأمددته بما هو مقرر له، وبذلت جهدا كبيرا فيما يتصل بأمنه، وذكاؤه ومعارفه تبعث على الاطمئنان فيما يتصل بهذه الرحلة الطويلة والشاقة».

وفى ٢٦ أبريل عبر على بك **البوسفور**، وفى ١٣ كان فى **حلب**، وفيها ألغى رحلة كانت مخططة من قبل لزيارة **جبل لبنان**، حتى لا يتأخر عن اللحاق بقافلة الحجاج، وكانت غايته من زيارته أن يدرس طبيعته الجيولوجية ونباتاته، وقبل ذلك أن يلقى **ليدى سوسى هيستر ستانهوب**، حفيدة الرحالة **بيتس**، ورحلت إلى المشرق عام ١٨١٠، وسكنت قرية **جونى**، فى جانب من **لبنان** الوصول إليه عسير للغاية، وسمح لها العثمانيون بأن تحيط نفسها بحرس شخصى، وأن تمارس سلطتها على سكان الجبل، وكان ذلك مما يهم **على بك** بطبيعة الحال فهو يريد أن يتعرف على هذه المغامرة التى حققت جانبا صغيرا من طموحاته الكبرى، وأحلامه بأن يكون على رأس أرض إسلامية واسعة. وحاول قنصل فرنسا فى **حلب** أن يحقق له هذه الغايه، فتبادلا الرسائل، ولكن لقاءه بها لم يتم.

كان قنصل فرنسا فى حلب صديقا لعلى بك، وسبق أن التقيا فى قبرص عام ١٨٠٦، ولذلك استضافه فى بيته فى حلب طوال إقامته بها، وبلغت واحدا وعشرين يوما، وفى ٣٠ يونية خرج علي بك فى طريقه إلى دمشق، وفى طرابلس قبض من القنصل المبلغ الذى كان مقررا أن يتلقاه فى عكا من عملة صغيرة، مما أضاع عليه عند الاستبدال مبالغ كبيرة، ولم ينتبه لهذا الأمر إلاّ فيما بعد.

وفى ٤ يولية وصل إلى دمشق، ووجد مفاجأة سيئة فى انتظاره، ذلك أن الطبيب الفرنسى شابوسو، وعرفه فى الرحلة السابقة، كان غائبا عن المدينة، فاضطر أن ينزل فى دار مع بقية الحجاج ويسميها «الجهنمية»، وقد توقّع أن يسأل الطبيب عنه، وأن يبحث له عن منزل مريح، فلما افتقده غضب عليه، ولكن القنصل رينيو تدخل فى الأمر، وبين له أن الطبيب كان غائبا عن دمشق لمرضه، فقد وقع من جواده فوق الصخور، وهو فى التاسعة والسبعين من عمره، فلزم السرير، وبقى تحت رعاية الطبيب، ولذلك غاب عن دمشق أربعين يوما.

وفى تلك الأيام ظهرت علائم المرض على على بك، وفى ٢٣ كتب إلى مولييه: إن تعاور الجو على بدنه، مع تقدم السن، أوهن صحته، وأصابه بالدوسنتاريا، مع مظاهر توميء بالخطر، وأنه يعالج نفسه، وتلقى من مصرفى يعرفه فى لندن بعض الأدوية، دون أن يحتاج إلى طبيب، إذ ليس فى دمشق كلها غير طبيب واحد، وهو ملازم الفراش لمرضه، ولم يعد يذهب إلى عيادته.

ولكن بعد ذلك بثلاثة أيام اضطر إلى أن يرسل إلى **شابوسو** يخبره بحالته، ولما رأى هذا خطورتها قرر أن يذهب إليه، رغم أنه ملازم الفراش، ومتقدم فى السن، لكى يكشف عليه.

وكارثة أخرى كانت تنتظره أيضا. فقد استولى أحد خدمه على كيس نقوده، وبه ٣٢٠٠ قرش، حين كان خارج البيت يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد المدينة، وقبض على الخادم أثناء هروبه فى **حماة**، ولكن **على بك** لم يتلق من المبلغ غير ألف قرش فقط، أما الباقى فدفع شكرا للباشا، وللآخرين الذين قبضوا عليه. وبعد أن دفع نفقات القافلة التى سوف تحمله إلى **مكة** لم يبق معه غير ثلاثة عشر ألف قرش، فاحتاط لنفسه، وطلب من **هوليه** أن يأمر قناصل فرنسا بأن يدفعوا له ألفى فرنك، إذا فاجأته سرقة أخرى حتى لا يبقى بدون نفقات.

وفى ١٧ من أغسطس خرجت القافلة من **دمشق**، وكان **على بك** يتوقع أن يعيد إليه هواء الصحراء الجاف صحته، فكتب إلى أسرته: «المناخ الساخن يعيدنى شاباً، ولكن الطبيب **شابوسو** لم يكن يشاركه تفاؤله، فكتب إلى **هوليه**: يعزينى أن أراه وقد استرد صحته على نحو يسمح له بأن يواصل رحلته، ولكنى لا أستطيع أن أخفى على معاليكم المخاوف التى تنتابنى فيما يتصل بالنتائج، فإنى أجد الرجل منهكا، سواء فيما يتصل بضعف مزاجه، أو بعمله الذى لا يتوقف، وبخاصة أنه يسهر جانبا طويلا من الليل يرد على عدد

لا يحصى من الرسائل، يصنع ذلك ليلا لأن البيت الذى ينزله مشترك بينه وبين حجاج آخرين، فضلا عن الحر البالغ الذى نعانيه، ومتاعب رحلة طويلة ومرهقة، وكل ذلك يجعلى مشغولا عليه جدا إلى أن تعود القافلة».

وما إن بدأت القافلة سيرها حتى لزم باديا سريره لأن الدوسنتاريا هجمت عليه من جديد، وأخذ خدمه يعالجونه، ويهتمون به، ولكن الألم أخذ يزداد، وبعد يومين توقفت القافلة كعادتها فى **موزيرب** إلى جانب **الجولان**، وهو مكان تجتمع فيه قوافل الحجاج الكبرى كى تتمون قبل أن تعبر الصحراء الكبرى، وفى هذا المكان التقى باديا أيضا بالرحالة البولندى **ريزيفوسكى**، الذى أرسلته ملكة ألمانيا ليشترى لها خيولا عربية أصيلة، وقد أخذ بمظهر هذه المحطة والقوافل، تتكون من أناس ينتمون إلى بلاد مختلفة، وظهر فى خيمة باديا يرتدى ملابس عربية، وعنى به خلال عدة أيام، دون أن يستطيع إقناعه بالعودة إلى دمشق كما تتطلب صحته.

وبعد عشرة أيام من الراحة أقلعت القافلة فى ٢٨ أغسطس، وعندما توقفت ليلا كانت صحة باديا قد ساءت، ولم يبق أمامه إلا أن يفرغ ما فى بطنه، وأخذ وحيدا يحرق أوراقه، وقاوم يومين والقافلة تواصل سيرها نحو **الزرقاء** على ضفاف النهر الذى يحمل الاسم نفسه متفرعا من نهر الأردن، وفى هذا المكان الأخير أحس بقرب النهاية كأمر لا مفر منه، فبدأ ينظم أموره، ويتخذ قراره فيما يتصل بالأموال

التى يحملها ، وكلف خادميه ياسين وإبراهيم أن يسلّما كل حاجاته إلى قنصل فرنسا فى دمشق ، واختار الشيخ الجزار منفذا لوصيته ، وطلب منه أن يقسم الأموال المعدنية التى معه إلى نصفين ، بين عبد أسود كان يصحبه ، وأن يوزع النصف الآخر على فقراء مكة والمدينة . وفى المرحلة التالية ، بين الزرقاء وقلعة البلقاء ، كان على القافلة أن تسرع بأقصى إمكاناتها ، وفى منتصف الليل وجد على بك نفسه فى حالة إغماء فخلع خاتمه وكان يتخذه للتوقيع ، وأعطاه لخادميه ، وأغلق هذان الخيمة عليه ، وعندما فتحاها فى صباح اليوم التالى وجداه جثة هامدة .

كانت القافلة تضم مجموعة من المغاربة الذاهبين إلى الحج ، وقد تابعه هؤلاء منذ اللحظة التى رأوه فيها يخرج مريضا من دمشق ، رأوه غنيمة محتملة ، يمكن أن يستولوا على أملاكه إذا فاجأه الموت ، وعندما علموا بذلك سطوا عليها ، وأخذوا يسبونه ، واتهموه بأنه مسيحى متخفٍ وساحر ، ومع ذلك دفن على الطريقة الإسلامية فى قلعة البلقاء ، فى الجنوب الشرقى من الأردن الآن .

هل مات باديا مسموما ؟ .

لقد شك هو نفسه قبل أن يموت فى هذا ، إذ يقول فى آخر رسالة كتبها إلى قنصل فرنسا فى دمشق فى ٢٣ أغسطس : « قبل خروجى من دمشق بثلاثة أيام زارنى الطبيب شابوسو ، وأحضر لى معه عدة قراطيس من « روند » محمص ، أخذت واحدة فسببت لى ألما مزعجا ،

ومجاملة له واصلت حتى الرابعة ، وهذه كانت كافية لكى أضع الموت فى فمى بأصبعى ، فتركتها ، ووجدت نفسى فى حالة إنهاك مطلق» .

«وبدون شك كان هذا العلاج يحتوى سماً دون أن يعرف **شابوسو** الغلبان أو يشك ، وجاءت الضربة ــ فيما يرى ــ من راهب إسبانى فظ كان صديقا حميما لزوجة **شابوسو** ، ومن هذه الشيطانة أيضا ، وهما يعتقدان أنهما بهذا صنعا فضلا عظيما . ومع الرسالة أرسل لكم بقية هذه القراطيس ، إذا عشت احتفظ بها حيث هى عندك ، وإذا مت أرسلها مع خطابى إلى مسيو **موليه** .

وثمة رواية أخرى عن موته ترويها **الليدى ستانهوب** ، وظلّت تتبادل الرسائل معه حتى موته ، وأبدت رأيها حوله فى حوار مع الكونت **مرسيللو** سكرتير السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ، سألها :

ــ ألا أستطيع مساعدة الرحّالة التعس **على بك** ؟

وعندما سمعت **ستانهوب** بالاسم تأثرت وردت :

ــ لقد أثرت كل مواجعى ، مسكين **على بك** ! ، كم أنا حزينة له ، ولكن بصراحة (أضافت بعد لحظة صمت) هل لديك أوامر بأن تتحدث إلىّ عنه ؟ .

ــ أبدا ، أكرر ياسيدتى أن زيارتى لك لاغاية وراءها أبدا ، ولا تمثل جانبا من واجباتى ، وأسئلتى حول **على بك** تجئ منى بوصفى رجلا يهتم بقوة بنتائج رحلته الأخيرة .

ـ حسنا. ياسيدى ، أعتقد أن الله أرسلك إلى لأتحرر من ألم حقيقى ، وأثق فيك ثقة مطلقة . عندى رسالة كتبها على بك قبل أن يموت ، وقرطاس من «الروند» المحمص مسموم ، واعتقد أنه سبب موته ، وأود أن أرسل الأمرين ، الرسالة والقرطاس ، إلى وزير بحرية فرنسا ، وحتى الساعة .لا أثق فى أحد ، عدنى بأن تحملها معك عندما تعود إلى باريس ، وتنفذ إرادة الرحالة الأخيرة .

فى البدء فكرت أن موته كان انتقاما من المسلمين ، لأنه فى رحلته الأولى التى نشرت فى باريس أزاح النقاب عن أسرار مكة ، ووصف بدقة قبر محمد ، واستطاع أن يحقق هذا متخفيا وراء زيه الشرقى ،فأرادوا عقابه على فضوله هذا ، ولكنى عرفت أخيرا ألاّ شىء من هذا ، وهو نفسه ينسب موته إلى أسباب أخرى » .

وطبقا لها ، فإن على بك «كان ضحية سم الأوربيين وحدهم» ، ويفهم منها أن الإنجليز هم الذين قاموا بهذا .

ويعطى الكولونيل هرنييه رواية أخرى شبيهة ، ويتهم الإنجليز فى المقام الأول ، وطبقا له فإن لويس الثامن عشر حذّر على بك : «شك فى بعض الأجانب ، والإنجليز منهم بخاصة .. إفهمنى .. الإنجليز بخاصة » .

وثمة رواية ثالثة أوردها الذى كتب مقدمة الطبعة الإسبانية ، ولو أنه أخطأ فى تاريخ الوفاة وجعله ١٨٢٢ ، فهو يصرح بأن «الحكومة

الفرنسية أعطت باديا مكافأة مهمة عن رحلته إلى الهند، ومنحته درجة مرشال فى الجيش ومرتبه، وخرج من باريس تحت اسم علي عثمان وتوجه إلى دمشق، ويؤكد الفرنسيون أن باشا دمشق قبض مبلغا من أمة كبرى كى يراقب علي بك فى دراسته لطريق الهند، فدعاه إلى تناول الطعام، وكان فنجان القهوة الذى شربه آخر ما تناول فى حياته، وظلت أوراقه وحاجياته فى حيازة الباشا»، ويعتقد المؤرخ الإسبانى غرسية هريروس أن كاتب المقدمة أخذ هذه المعلومات من زوجة باديا .

وفيما يتصل بقرطاس «الروند» المحمص، والذى اعتقد باديا أنه مسموم، فحصه صيدليان فى باريس، وجاء تقريرهما سلبيا، وأخطرا بذلك وزارتى البحرية والمستعمرات.

لقد عرف على بك كيف يحيط موته، كما أحاط حياته من قبل، بطائفة من الأساطير، وقصة دس السم له يجب أن يُنظر إليها فى ضوء مؤامراته للاستيلاء على عرش المغرب.

حاول القنصل الفرنسى أن يجس النبض لاستعادة أوراق باديا وحاجياته وأمواله، تبعا لأوامر وزير البحرية الجديد البارون بورتال، وعرف الرحالة عندما كان مديرا عاما للمستعمرات، وأما الغنائم التى حازها الحجاج المغاربة فقد أودعت تحت تصرف الأغا، أى رئيسهم، وقد اغتيل هذا فى الطريق ــ تبعا لرواية قنصل فرنسا ــ فاضطلع بأمرها باشا دمشق، إذ ليس للمسيحيين الحق فى أن يطالبوا بميراث

رجل مسلم، وكان من الضرورى أن تتدخل الحكومة الفرنسية لدى الباب العالى، ولكن ذلك يعنى إظهار شخصيته المزيفة، وبداهة لم تفعله. وباع الباشا جانبا من مخلفات **على بك**، وحصلت **اللادى ستانهوب** على جانب منها بسعر مرتفع، وحصل أحد الآباء الرهبان على ساعة توقيت بسعر رخيص للغاية لأن الباشا كان يجهل قيمتها.

لم يُعرف موت **على بك** إلاّ بعد مرور شهور طويلة من حدوثه، عرفه القنصل الفرنسى فى **دمشق** فى نوفمبر، وأعلم **شابوسو** السفير الفرنسى فى **القسطنطينية** فى ١٤ ديسمبر، ولكن السكرتير العام لوزارة البحرية لم يعلم اسرته بالخبر إلاّ فى ١٧ مارس ١٨١٩.

وكان هناك من يظن أن باديا لم يمت، وإنما هى حيلة منه كى يواصل خططه الخيالية، وكانت عائلته تميل إلى هذا الرأى، وقد رفض وزير البحرية أن يسمح لأسرته بأن تقيم على روحه قداسا «لأن التقارير التى لدى الوزارة ليست كافية للموافقة».

• • •

نحن أمام رحلة ذات طابع خاص: رجل أوربى يتخفى وراء شخصية أمير عربى مسلم، يرتدى زيا شرقيا، ويقيم الشعائر الإسلامية، ويكتب باللغة الفرنسية، ويتوجه إلى قارئ مسيحى، وكل ذلك يفرض عليه واقعا معينا: أن يسبح فى بحار عديدة، وأن يواجه تناقضات عميقة. وقد لاحظ خلال رحلته على أن يظهر فى ثوب

مسلم تقى، ووصف عقيدة المسلمين وكثيرا من طقوسهم، وقدم للجمهور الأوربى لوحة مفصلة عن حياتهم الاجتماعية والدينية، وأخذ يؤكد، ربما ليشى بشىء لا يستطيع التصريح به، على أن الإسلام لا يعرف النظام الكنسى ولا الرهبنة، ولا الطبقة الوسيطة بين العبد وخالقه، والناس جميعا سواسيه أمام الله، فليست هناك طبقة متميزة، وأحيانا يترك الحماسة تغزوه، انطلاقا مع الدور الذى يمثله، فتفيض مشاعره، وتتجاوز حدود ما هو تقليدى، كتب عن الحج يقول:

«على جبل عرفات فحسب يمكن أن تتصور فكرة المشهد العظيم الذى يقدمه الحج للمسلمين: جماهير غفيرة من كل الشعوب والأمم والألوان، جاءوا من أقصى أنحاء المعمورة، عبر آلاف المخاطر، ومتاعب ومعاناة لا حد لها، لكى يعبدوا الله الواحد معا: سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشى أو الزنجى من غينيا، والهندى والفارسى يتآخيان مع البربرى والمغربى، يتلاقون جميعا أخوة، أو أفرادا من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتتحدث أغلبيتهم، أو على الأقل يتفاهمون، كثيرا أو قليلا، باللغة نفسها، وهى اللغة العربية المقدسة، وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهدا أكثر روعة، وأقوى تأثيرا، وأسمى جلالاً».

ولكنه فى فقرات أخرى ينسى دوره فقيها عالما، ويعود أوربيا متحررا، فهو يحمل بقسوة على الأولياء فى المغرب، وامتيازاتهم الدينية، وأنهم يتلقون المكانة وراثة، وتمتعهم إلى أقصى حد بملذات

الدنيا، حتى آن سيدى العربى كان يملك ثمانى عشرة جارية سوداء، ويورد حوارا جرى بينه وبين فقيه وقور فى طنجة، يرى فيه هذا مقتنعا أن بسطاء الفكر فى هذا العالم جاءوا لخدمة الأذكياء، ويصف التعليم فى أحد كتاتيب مدينة فاس، وقسوة الفقيه، وصراخ الأطفال يستغيثون رهبة ويطلبون الرحمة، ويرد الصحة القوية، وتدفق الدم فى وجوه اليونانيين فى هوريا، إلى كمية النبيذ الكبيرة التى يشربونها. وأشار إلى مستوى اليهود المنحط فى حيهم «الملاحة» فى الرباط، وأن أى واحد منهم، مهما كان غنيا، لا يستطيع أن يمرّ بمسلم وهو على ظهر دابته.

وعلى بك فى روايته للأحداث أقرب إلى رحالة المغرب فى العصر الوسيط منه إلى الرحالة الأوربيين المحدثين، فهو يلتقى مع ابن بطوطة، كما لاحظ بحق كل من سيرافين فاتخول وفيدريكو أريوس فى مقدمتها لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الإسبانية وتمت من أعوام قليلة، فى أن كلاً منهما شحيح للغاية فى المعلومات التى يقدمها عن شخصه وحياته الخاصة، ربما لأنهما يهدفان أن يقدما إلى القارئ «العادات الطارئة، والأحداث الرائعة، والوقائع الهامة»، التى تعلى من قدره كاتبا، وكلاهما ــ ابن بطوطة وعلى بك ــ يقف طويلا عند القضايا التى يجهلها قارؤه، فتجذبه غرابتها، تاركا الحديث عن شخصه ومشاعره جانبا، وهى خاصية تفرض على القارئ أن يكون إيجابيا إزاء ما يقرأ، يقظا وله موقف، لكى يكوّن رأيه الذاتى والأخلاقى.

ومثل ابن بطوطة، وبعض الرحالة الأخرين، لايمل على بك من الحديث عن مقابلاته مع الملوك والباشوات والأشراف وكبار العلماء الذين التقى بهم وأهميتهم، والاحترامات التى قوبل بها، والهدايا التى قدمت إليه، والابتهاج الذى صحبه قادما أو راحلا، ويفسح المجال لتفصيلات مملة، ومبالغ فيها أحيانا. فهداياه لعلية القوم، وحواره مع القواد والأشراف المغاربة، جعله موضع الرعاية من الجميع، وأعطاه تميزا واضحا على كل الأجانب، فله حق الجلوس إلى جوار السلطان فى جلساته الخاصة، وأن يستعمل المظلة، وهى رمز السيادة، فى الحفلات، وفى فاس لفت البرنس الذى أهداه إليه مولاى سليمان أنظار الناس، فهم يتجهون إليه احتراما ويقبلونه فى كتفيه، وأصبح اسمه وملابسه يجرى على كل فم، وذاعت شهرته عالماً، وتدخله فى قضايا البلاط جعل المعجبين به يقبلون يده، ويأخذونه بالأحضان، ويعلنون أنه أعلم الرجال، وهى مظاهر لم تفارقه ــ فيما يقول ــ حتى فى ساعات الخطر، عندما حملته المركب إلى طرابلس الغرب، وأوشكت أن يبتلعها اليم، فقد لجأ إليه القبطان والبحارة والركاب عندما علموا أنه قادر على إنقاذهم بدعواته وعلمه.

ولحظ أن الناس يحترمون طائر اللقلق والسلحفاة، وقالت له عجوز مراكشية تحترف السحر إن اللقلق كائن إنسانى من جزر بعيدة، ولكى يستطيع الرحلة ويزور أمكنة أخرى اتخذ شكل هذا الطائر المهاجر، ولكنه يعود فى كل عام إلى بلده، وهناك يسترد حالته

الأصلية . ووصف حفلات الإعذار والمولد النبوى والجنائز والحمامات ، ولا تختلف الآن كثيرا عما كانت عليه فى القرن الماضى ، أما حفلات الزواج فقد تطورت بعض الشىء .

ونظرة باديا إلى المجتمع المغربى فى تلك الأيام جديرة بالتأمل ، وأول ما استرعى انتباهه الفقر والبطالة ، رغم ثروات البلد الطبيعية الهائلة ، فهم لا يعرفون ، أو لا يريدون ، استغلالها . ويلبسون أسمالا بالية ، وينامون على الأرض ، وتراهم فى الشارع فى أى ساعة من النهار يسيرون بلا غاية ، أو يجلسون جماعات فى الأمكنة ، يتبادلون أحاديث تافهة ، ولا يتعبون منها ، رجالا ونساء ، أغنياء وفقراء ، ويعيشون فى جهالة قاتمة ، وبخاصة فيما يتصل بالسماء والكواكب ، وجهلهم الكامل بعلوم الطبيعة والفلك جعلته يلمع بينهم عالما على تواضع معارفه ، وقد أذهلتهم العدد التى يحملها ، لأنهم كانوا يرونها للمرة الأولى .

وهو يخلط بين الملاحظات العلمية والتقارير السياسية ، ربما استجابة لمهمته التجسسية التى عهد بها إليه **جودوى** ، فيذكر أن المغاربة يجهلون الخدمة العسكرية ، وتعوزهم الأسلحة والمعدات الحديثة ، وعادة يترك الجيش مراكز دفاعه وبطارياته بلا حراسة ، ومدينة الساورة لا يمكن أن تقاوم أى حصار لأن الماء ينقصها ، والقوات النظامية وغير النظامية تتميز بإهمالها وعدم تدريبها ، ويتولى الجنود حراسة المواقع جالسين وأحيانا من غير سلاح ، والبلد تحتضر ، والناس

كثيرو الشكوى، وهو طابع المرء الذى يعرف أنه يجب أن يكون حرا ولكنه مع ذلك يخضع لأشد ألوان الطغيان همجية.

ووصف مدينة مراكش، أطلالها ومقابرها الفسيحة وقنوات المياه المهجورة، وأن كثيرا من العمالات تعيش بلا باشا ولا قائد، ولا تدفع أية ضرائب، وتتجاهل السلطان واقعا، ويحكمها المرابطون، وتتمتع بنوع من الحكم الذاتى، ويدرك الفرق بين بلاد المخزن وهى التى تخضع للإدارة المركزية والسلطان، والبلاد السائبة، بقاطعاتها المختلفة، وتتبع الزوايا ورؤساء المرابطين. والدولة فوضى بسبب نمو الطوائف، والصراع الداخلى بينها، والحرية المطلقة للأغنياء والمغامرين، تقابلها بطالة الضعفاء وبؤسهم، وأدى عدم تنظيم وراثة العرش إلى صراع دموى بين الأخوة والأقرباء، فكل أمير طامع فيه، ويسلح أتباعه للدفاع عن حقه، وموت سلطان مغربى وتولية أمير جديد، تستلزم عادة موت مئة ألف مغربى.

• • •

عندما اتجه **باديا إلى الشرق** تحرر من الاهتمام الأكبر بالسياسة ومؤامرات القصور، والمهمة التى كلفه بها **جودوى فى المغرب**، وألقى بكل ثقله إلى جانب الملاحظات العلمية والأنثروبولوجية والاجتماعية، مقدما للقارئ سلسلة من الأحداث التاريخية، والعادات والتقاليد فى الشعوب التى زارها، يوضحها برسوم من قلمه، ذات

أهمية كبيرة فقد نسخ للمرة الأولى، وفى دقة متناهية، الآثار الإسلامية فى مكة وأنحاء أخرى من العالم العربى.

فى طرابلس الغرب شهد الصراع الدموى الذى انفجر بين العمالات التى تخضع للسيادة العثمانية نظريا، واستنتج منها أن هذا الموقف لا يمكن أن يستمر إلى مالانهاية، وأن الفوضى السائدة والحروب الأهلية سوف تودى بالقوة العثمانية.

وفى القاهرة أقام ثلاثة أسابيع نزل خلالها فى بيت الشيخ المنلوتى شيخ رواق المغاربة وإمام الجامع الأزهر، ووجد فى مصر جالية مغربية كبيرة، على رأسها مولاى سلامة شقيق السلطان، وكان لاجئا فى مصر، وتعرف إلى كبار علماء الأزهر وشيوخه والزعماء الشعبيين: السيد عمر مكرم شيخ شيوخ القاهرة ونقيب الأشراف، «وغالبا ما كان يلعب دور أمير مستقل بذاته» والشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ورئيس العلماء، والشيخ الأمير مدير صندوق الأزهر وأمينه، والرئيس الثانى للعلماء، والشيخ الساداتى شيخ الطريقة الوفائية، والشيخ البكرى شيخ الطريقة البكرية، والمهدى، وسليمان الفيومى، والدواخلى، والسيد عبد الرحمن الجبرتى والفلكى الأول فى مصر، والعروسى والصاوى، وهذان يتمتعان باحترام كبير، تكريما لما كان يتمتع به أبواهما من قبل، والسيد المحروقى شيخ التجار وصاحب النفوذ الكبير، ونائبه محمد حسن.

وقد وصف لنا العناصر التى رآها فى **القاهرة**، الأرناؤوط والمماليك والألبان، والفوضى السياسية الضاربة أطنابها، فلم يكن **محمد على** قد تولى الحكم بعد، والكل يسرقون الشعب، والخليفة لا يملك وسيلة لإخضاع مصر لحكمه، فاكتفى بالضرائب التى يرسلها إليه الباشا، وشهد هجوم الإنجليز على رشيد والإسكندرية وهزيمتهم، «وامتلأت القاهرة بالأسرى الإنجليز وكانوا تعساء للغاية» على حد تعبيره.

وفى وصف **القاهرة** حاول أن يصحح الأخطاء التى وقع فيها كثير من الرحالة الأوربيين حين يصفون «شوارع القاهرة بأنها فى منتهى القذارة وكآبة المنظر، لكنى استطيع أن أؤكد أنه توجد مدن قليلة فى أوربا ذات شوارع نظيفة جدا كالقاهرة، فالشوارع ممهدة، أشبه بطريق عُبِّد بعد رشه بالماء، كطرق أوربا الواسعة، وإذا كان ثمة شوارع ضيقة فهناك أخرى واسعة، ولو أنها كلها تبدو أضيق مما هى عليه فى الحقيقة». و«إذا نحينا القول بأن شوارع القاهرة ذات مظهر حزين، فإن العدد الهائل من الحوانيت والمصانع، وجموع الدهماء المارة، يعطى على الدوام مناظر متغيرة فى كل لحظة، الشىءالذى وجدته بهجا وممتعا، كما هو الحال فى مدن أوربا الكبرى، أما الربض الذى يسكنه الإفرنج أو الأوربيون، والمنزوى بعيدا عن المركز التجارى الرئيسى فى المدينة، فهو مصدر ماذكره الرحالة الأوربيون فى أغلب الظن».

كما وصف مناخ القاهرة، ومعالمها البارزة: مسجدى الحسين والسيدة زينب وجامع السلطان حسن، وكسوة الكعبة، ومشفى قلاوون والقلعة والأهرام وأبا الهول والجيزة والروضة والمقياس ومصر القديمة والأديرة، وبولاق، وأطنب فى وصف الجامع الأزهر، وحوله يعيش كبار شيوخ القاهرة، وهو مقصد المغاربة الذين يؤمونه للصلاة، ويفضلونه على غيره من المساجد، وفيه يجتمع القاضى ومشاوروه، ويلقى كبار العلماء دروسهم، منقسمين إلى حلقات، كل واحدة تتجمع فى محيط صغير، وتشغل الحلقات كلها امتداد المسجد الواسع.

وربما كانت الصفحات التى خص بها الحج والجزيرة العربية هى أكثر صفحات الكتاب إثارة، وهو أول رحالة أوربى زار الأماكن الإسلامية المقدسة بنفسه، فى ثوب مسلم تقى، لأن دخولها محظور على غير المسلمين، وجاءت زيارته شاهد صدق على شجاعته وعزيمته ورغبته فى أن يذهب مع المعرفة إلى آخر مدى لها. وعلى النقيض من رحلته إلى المغرب، لم تكن رحلته إلى مكة ذات أغراض سياسية خفية أو أهواء تبشيرية، وإنما تدخل فيما نسميه اليوم «أنثروبولوچى»، ودون أن نتوقف عند وصفه للطقوس والاحتفالات الإسلامية، والتى أكملها وصححها فيما بعد الرحالة السويسرى بورخارت، والإنجليزى بورتون، سوف نكتفى بما أورده عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مكة، والإصلاح الدينى الذى جاء به الوهابيون.

لاحظ **علي بك** أن **مكة** تقع وسط الصحراء، بعيدا عن الطرق الصحراوية، فأرغمها ذلك منذ أزمان سحيقة على أن تفرض نفسها بقوة العقيدة الدينية، وأن تستغل الفوائد المادية التى تأتى من وراء هذه، كما يحدث لروما فى إيطاليا، أو شنت ياقب فى إسبانيا فى العصور الوسطى. وأهلها يعيشون من التقوى، والصدقات التى تأتيهم من بعيد، والأموال يحصلون عليها مطوّفين، وأصحاب فنادق وخانات، خلال أشهر الحج، ممّا يسمح لهم بأن يعيشوا منها بقية العام عليها، وبدون هذه الزعامة الدينية تتحول مكة فى زمن قليل خرائب وأنقاضا ودورا مهجورة، أمّا معها فتنتعش التجارة، ويؤجر السكان خدماتهم للحجاج، وهدايا هؤلاء وصدقاتهم تكفى من يقومون على خدمة المساجد والأمكنة المقدسة.

التشدد الإسلامى الذى يدعو إليه **محمد بن عبد الوهاب** وأتباعه قضى على الزنادقة والسحرة والمهرجانات الدينية، وكانت تسهم ماديا فى رفاهية سكان مكة والمدينة، والوهابيون لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب، وإنما هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفا لهم وإنما يمنعون أيضا تقديس شخص النبى، وحتى منعوا الحج إلى قبره، وأتيحت الفرصة لعلى بك ليرى ذلك بنفسه، ويعترف بأن المكان الذى نزلت فيه قافلته أغارت عليه شرذمة من الرجال، حليقى الرءوس، شبه عراة، مسلحين حتى أسنانهم، فامتلأ رعبا، ولكن ما إن تعرف عليهم حتى اكتشف فيهم

مجموعة من الفضائل والصفات الطيبة، كالنبل وإنكار الذات، أعظم مما وجد عند بقية العرب، وهم أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كل ألوان المعاناة، ويتابعون قادتهم ولو لنهاية العالم، لا يتراجعون أمام أى خطر أو صعوبة.

ولكنه يرى بعد أن تأمل مواقفهم وعقيدتهم جيدا، أن مثلهم الأعلى الدينى والاجتماعى سوف يجد معارضة قوية تحول دون انتشاره فى المناطق الأكثر غنى وتقدما، لتشدده وصرامته، واصطدامه مع العادات التى درجت عليها الأمم الإسلامية الأخرى، ويقول بالنص: «إذ لم يخفف الوهابيون قليلا من شدتهم فى المبادئ التى يؤمنون بها، فيبدو لى أن من المستحيل أن تنتشر الوهابية فى بلاد أخرى أبعد من هذه الصحراء».

وتكتسى نظرته إلى فلسطين أهمية بالغة، لأنها تناقض سلسلة الأساطير والخرافات التى شاعت وتكذبها، والتى اكتظت بها الصحف والكتب، وملأ بها مؤسسو الصهيونية العالم بأجمعه، تتحدث عن أسطورة الصحراء التى أحالوها جنة، بالمستعمرات التى أقاموها، والمزارع التى أنشأوها، والاضطهاد الذى تلاقيه الأقلية اليهودية والمسيحية من الفلسطينيين، وشهادته وهى محايدة وموضوعية تكذب كل هذه الدعاوى. يقول: كل المنطقة التى رأيتها فى فلسطين، من جنين إلى يافا، رائعة الخضرة، ومكونة من قرى مستديرة، وملتوية، وأرض خصبة تكاد تشبه دلتا وادى النيل فى مصر، وهى غنية بالمزارع، وجميلة جداً.

«وفى فلسطين يسود أكمل انسجام عرفته بين كل الأديان، وتبدو تقاليد السكان العربية أكثر تقدما بالنسبة لجيرانهم، فالنساء المسلمات يمشين مكشوفات الوجه، والاحتفالات والمهرجانات الإسلامية مفتوحة للرجال والنساء، وأصحاب العقائد الأخرى أحرار فى الاشتراك فيها، والمسلمون فى الناصرة يذهبون فى مهرجان دينى كى يقدموا أطفالهم لمريم العذراء، ويحلقون شعرهم للمرة الأولى فى كنيستها، والأوربيون فى عكا يتمتعون بحرية كاملة، ويجدون التقدير من المسلمين. وكبير وزراء الباشا يهودى لأنه يتمتع بمواهب كثيرة».

«وفى القدس يعيش أتباع المسيح مختلطين بالمسلمين، دون أن تستطيع التمييز بين الاثنين، وانتج هذا الاختلاط حرية أكثر اتساعا مما هى عليه فى أى بلد إسلامى آخر».

وقد أمضى على بك أعوام رحلته عفاً، غير مهتم بما هو تحت البطن كما يقول المثل الفرنسى، على النقيض من ابن بطوطة، والذى كان يتسرى فى كل بلد يهبطه، فإذا لم يتيسر له ذلك تزوج، ويحكى لنا فى ظرف وخفة دم، أنه نزل إحدى المدن ليلا، ثم استيقظ مبكرا وصلى الفجر، ومع النهار زار القاضى والإمام وحاكم المدينة، وبعضا من أعيانها، وتناول الغذاء، ويكمل فى نبرة متعجبة: إنه صلى العصر ولم يتأهل بعد!. وعلى النقيض أيضا من الرحالة الأوربيين المحدثين الآخرين أمثال بورتون وفلوبير وغيرهما، ممن يعتبرون رواد الانتروبولوجى الجنسى الحديث، ولهذا ارتعب على بك من بعض

العادات المتحررة فى البلاد الإسلامية، فارتاع من طريقة الاختلاط بين الجنسين فى فلسطين، وكره بعنف الدور الذى يقوم به السود فى المغرب حين يمارسون الحب، المغاربة مع السوداوات والسود مع المغربيات، ولاحظ أن حرية المرأة فى القسطنطينية تسهل لها الفجور كثيرا، وانتقد بشدة مارآه فى المشاهد العامة من هذه المظاهر.

لايكفى أن نلقى على رحلة باديا دومينجو نظرة خاطفة، أو نعرف بها تعريفا عاما، إنها فى حاجة إلى ترجمة كاملة، والكثير منها يساعدنا على فهم حاضرنا، وتفسير شىء من اتجاهاته، و.يفتح أعيننا جيدا على المخاطر التى تحيط بنا، وأنها ليست قديمة، ولن تتوقف أيضاً!.